الصور العقلية وعلاقتها بالتفكير التخيلى

" دراسة تحليلية نقدية فى فلسفة العقل "

د/ منى محمد عبد المعطى محمد

مدرس المنطق وفلسفة العلم – قسم الفلسفة

كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة:

تشكل عبارة " أرسطو" التي تقول: " من المستحيل أن يوجد التفكير من دون صورة عقلية" موضوعًا مهمًا جديرًا بالدراسة، إذ أصبحت الصور العقلية –بعد أرسطو- تقوم بمهمتها بوصفها شرطًا ضروريًا سابقًا للتفكير.

وقد أبرزت الفلسفة –عبر تاريخها- إمكانية وجود آراء مختلفة بصدد هذه العلاقة. فهناك من رأى أن الصور العقلية تعد مقوّمًا أساسيًا في تكوين العقل، وأحيانًا كان يعتقد أنها عناصر التفكير. وكان هذا الرأي جزءًا لا يتجزأ من فلسفة "هوبز" و "هيوم". وعلى النقيض من هذا الرأي يقف "ديكارت" الذي يؤكد أن الفكر نفسه لا صورة له، في حين تحتل آراء "توما الإكويني" موضعًا وسطًا؛ إذ لا وجود لشيء في العقل قبل وجوده في الحواس أولا، ونستطيع بعد ذلك وعن طريق عقلنا أن نصوغ التصورات والأفكار.

وعلى الرغم من كون موضوع الصور العقلية لم يزل موضوعًا للفلسفة بصفة عامة ولفلسفة العقل بصفة خاصة، فإن هناك فروعًا مختلفة من العلوم (علم النفس المعرفيّ – علم اللغة – علم الأعصاب ...) بدأوا يطرقون تلك الموضوعات المتصلة بما هو عقليّ وما يوجد فقط على أنه ظواهر خاصة لشخصٍ معين من أبواب جديدة فتحتها لهم تلك المجالات، التي استطاعت أن تسلط الضوء على جوانب مهمة في مجال الصور العقلية.

وعليه، فإن الهدف من الدراسة فحص بعض الآراء التي ألقت الضوء على ظاهرة التعقل اعتمادًا على الصور العقلية، وكذلك تلك التي شككت في أن تكون للأفكار أية صلة بالصور العقلية.

وإشكالية هذه الدراسة تكمن في السؤال الآتي:

هل الصور العقلية حتمية للفكر أم أنها غير مفيدة له؟ أم أن هناك حالة أخرى وسطى؟ وبعبارة أخرى، هل إذا مُنِعت الصور من الحدوث والتكون سيستمر الفكر في العمل كعادته من دون توقف؟

وينبثق عن هذا السؤال أسئلة عديدة منها:

١. هل يعد التفكير تخيلا؟

٢. هل الصور العقلية غير الواضحة أفكارًا مجردة؟

٣. هل للصور العقلية أساس فيزيائيّ يمكن تعريفه في نطاق العقل؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما العمليات العصبية التي تحدث وقت التخيل؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤. ما حقيقة الدور الذي تؤديه الصور العقلية في بعض العمليات المعرفية؟

وللتحقق من هذه التساؤلات قسمت الدراسة إلى: تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة تتضمن أهم النتائج.

التمهيد - تحدثت فيه عن الآتي:

أولا- الخيال بوصفه مدخلا أساسيًا لدراسة الصور العقلية، وفهمها، وأوردت تعريفًا له.

ثانيًا-فرقت بين الصور الحسية والخيالية والعقلية.

ثالثًا-عرضت محاولة أصحاب المذهب الماديّ للتصدي للإجابة عن السؤال حول طبيعة الصور العقلية.

المبحث الأول-التفكير والصور العقلية ... أطروحات فلسفية

وفي سياقه تناولت آراءً مختلفة لفلاسفة نعدهم روادًا بالنسبة لموضوعنا، وذلك عن طريق مجموعة من الأطروحات لعل من أهمها السؤال: هل يعد التفكير تخيلا؟ ثم عقبت هذا بتعقيب بمجمل ما وصلت إليه.

المبحث الثاني-التفكير والصور العقلية ... آفاق متعددة

وفيه مهدت لظهور الفكرة في مؤلفات علماء النفس، وأعدت طرح السؤال: هل يعد التفكير تخيلاً؟ مرة أخرى. ووقع اختياري على اثنين هما:

أولا : "وليم جيمس" لكونه افترض أن دراسة الملكات المعرفية في حاجة إلى أساس علميّ، وأيضًا لأنه طرح سؤالين مهمين هما:

أ- هل الصور الغامضة أفكار مجردة؟

ب- ما العملية العصبية التي تشكل أساس التخيل؟

ثانيا : "جلبرت رايل" وعرضت أفكاره التصورية، وفي ضوء هذا العرض نوهت لأوجه الشبه بينه وبين سارتر، وأوضحت الأبعاد العلمية الحديثة لآرائه.

المبحث الثالث - "الأحلام"

ناقشت فيه بإيجاز السؤال عن طبيعة الأحلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

وأبرزت بعض النتائج التي توصلت إليها في أثناء الدراسة.

وقد اعتمدت هذه الدراسة في كثير من مواضيعها على التحليل والنقد منهجا يفتح السبيل إلى الوصول إلى ما للصور العقلية من علاقة بالتفكير التخيليّ بالإضافة إلى المنهج التاريخيّ.

وعليه، فإن هذه الدراسة جمعت الكثير من الأفكار في فروع الفلسفة وعلم النفس المعرفيّ وفلسفة العقل، ووضعتها في إطار متكامل، وطرحت أسئلة تمس صميم فكرنا وواقعنا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلاقة بين الصور العقلية والتفكير التخيليّ

تمهيد:

لدينا قناعة بأنه لا سبيل إلى فهم ما تؤديه الصور العقلية في عمل الفكر إلا بالوقوف -أولا- عند الخيال؛ إذ إن الخيال يمثل -فيما يختص بالعقل الإنسانيّ- ملكة إنتاج الصور بوصفها أفكارًا. إضافة إلى أن صورة الشيء العقلية كما نستحضره في الفكر تعد من أهم خطوات إتمام عملية التخيل.

وعليه؛ فسيناقش التمهيد ماهية كلمتي: (الخيال، والصور الخيالية)، كما يتضمن التفريق بين الصور الحسية والخيالية والعقلية؛ وذلك من أجل أن نقع على شيء يقرب إلينا طبيعة الصور العقلية، وهو ما يمثل الجزء الأخير من هذا التمهيد.

أولاً- تعريف الخيال Imagination:

الحقيقة، أن كل إنسان منا يعرف شيئًا ما عن كلمة "الخيال" معرفة لا يداخلها غموض، وعلى الرغم من ذلك فإن صياغة هذه المعرفة صياغة دقيقة ليست كما يبدو لأول وهلة أمرًا سهلا؛ ولذا آثرت أن أنتقي تعريفًا ورد في قاموس "رونز" الفلسفيّ؛ لأنه -فيما أعتقد- يتناول أشكال الخيال بشكل إجماليّ، وهو ما يجعلنا نبتعد عن التعريفات التي تعكس اتجاهات مختصة بأصحابها.

ويشير الخيال إلى عملية عقلية تتكون من[(١)]:

أ- إحياء الصور الحسية المستمدة من إدراكات حسية خُزنت من قبل، وهذا هو (الخيال الاسترجاعيّReproductive imagination).

ب- تركيب أو تأليف هذه الصور الأولية في وحدات جديدة (الخيال المنتج أو الإبداعيّ) The creative or Productive imagination.

---

(١) انظر:

-Ledger wood: imagination, Ed in, The dictionary of philosophy, edit by, Runes,D.D, George Rutledge and sons, LTD, London, 1944, P.141.

وكذلك: صفاء عبد السلام: قراءة للمصطلح الفلسفيّ، ترجمة وإعداد فريق عمل من أعضاء هيئة التدريس بقسم الفلسفة، دار كلمة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، عام ٢٠١٢م، ص٢٥١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخيال الإبداعيّ يتكون من نوعين:

١-التوهم أو الوهم (Fancy)، وهو يعد نسبيًّا تلقائيًّا ولا يمكن التحكم فيه.

٢-خيال تركيبيّ(Constructive imagination)،ويتمثل في العلم والإختراع والفلسفة، ويتحكم فيه خطة أو مشروع أو هدف ما.

ويؤدي تحليلنا لهذا التعريف إلي القول[١]:

- إن الخيال ملكة عقليــة يتــسم صــاحبها بــالوعي بخبراتــه الشخــصية الذاتيــة وبالموضوعات المحيطة به.
- إن ملكة الخيال لديها القدرة على إنتاج الصور العقلية وتشكيلها بوصــفها أفكــارًا، واستحضار صورة الشيء الذي حصل في تجربة إدراكية سابقة.
- إن مفهوم "الخيال" يحمل في مضمونه معنى المرونة والتحرر مــن جمــود الواقــع المعيش.
- إن الخيال قوة وهمية تنسج الأوهام التي لا أساس لها من الواقع.
- إن الخيال يمثل نوعًا من تحقيق الرغبات وفــق الميــول والاهتمامــات المتعلقــة بنشاطات ترتبط أكثر من غيرها كالإبداعات الفنية والأدبية والاخترعات.

ويعرف الخيال -إجمالاً- بأنه: "مجموعة من العمليات الحسية والإدراكية والمعرفية وما وراء المعرفية، والانفعالات النشطة التي تكون الصور الداخلية وتحولها وتحللها وتركبها وتنظمها في أشكال جديدة يجري تجسيدها -بعد ذلك- في أعمال وتشكيلات خارجية إبداعية في الغالب"[٢].

---

(١)لمزيد من الاطلاع انظر:

- A.R.Manser: Images, Ed in, The Encyclopedia of philosophy, Edit by, Paul Edwards, Collier Macmillan publisher, London, vol 3 and 4, Copy right C, 1967, P.136.

- عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة في العربية والإنجليزية والفرنسية... ، مكتبة مدبولي، جـ٣، عام ٢٠٠٠م، ص١٨٩.

- محمود يعقوبي: معجم الفلسفة أهم المصطلحات وأشهر الأعلام فرنسيّ-إنجليزيّ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، عام ٢٠٠٨م، ص٤٩.

- حسام أحمد محمد: سيكولوجية الصور العقلية، مجلة التربية، قطر، المجلد/العدد: م ٣١/ع ١٤٢، سبتمبر، عام ٢٠٠٢م، ص ص ١٧٢-١٧٣.

- حسام أحمد محمد أبوسيف: الخيال: أبعاده الأساسية ووظيفته المعرفية لدى عينات من مراحل عمرية مختلفة، مجلة دراسات نفسية، المجلد١٦، العدد٢، أبريل، عام ٢٠٠٦م، ص ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) صفاء عبد السلام: مرجع سابق، ص٢٥٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى كلٍ، نميل إلى تأييد القول: إن الخيال كيان أوشئ -إن جاز التعبير- لا يقبل التحديد؛ ومن ثم فهو يستعصي على التعريف.وعلى الرغم من أننا نجد تعريفات مختلفة لكلمة "خيال" في المعاجم الفلسفية وغيرها من الكتابات،فإننا نكتشف أنها لم توضح طبيعته أو ماهيته، بل قدمت -فقط- مجموعة من الأشكال والخصائص، بل والوظائف المعرفية التي يمتاز بها.

ونكتفي -الآن- بهذه الإشارة؛ لأن علينا أن نتابع تعريف "الصور الخيالية".

ثانيًا- تعريف الصور الخيالية Images:

ولتكن نقطة البدء في تحديد معنى الكلمة:

اشتقت كلمة "Image"من اللفظة اللاتينية "Imago" بمعنى شبيه أو شبه[1]likeness. ويحيلنا الأصل المعجميّ للكلمة إلى معنى مقارب، فقد وردت الصورة في "لسان العرب" لتشير إلى "ظاهر الشيء وهيئته، وحقيقة الشيء وصفته"[٢].

وفي السياق نفسه، قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته. يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته[٣].

وقد افترض المعنى المعجمي وجود تطابق بين الشيء وصورته في العقل؛ مما أعطى الصورة بعدًا حقيقيًا ومصداقية سرعان ما تغيرت واستبعدت مع تطور استخدام المفهوم؛ لأن الصورة -كما سيتضح لنا- ليست بالضرورة نسخة طبق الأصل عما أخذت عنه، بل إنها غالبًا ما تكون مزيفة وغير حقيقة[٤].

وخلاصة القول: إن اللجوء إلى الأصل اللغويّ والمعنى الاشتقاقيّ للكلمة، من الواضح أنه، لا طائل من ورائه؛ إذ إنه لم يأتنا إلا بمعان معروفة تمامًا ومفهومة جيدًا، أو ربما تعرفنا -فقط- بمبادئ سك المصطلح Mathesis[٥]؛ ومن ثم فإن السؤال عن ماهية الصور الخيالية من الصعب فصله عن أسئلة متعلقة بأنواع الصور الأخرى؛ ولهذا فسوف

---

(1) Ledger wood: Imagination , p. 141 .

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جزء٦، دار العربية للتأليف والترجمة، القاهرة، من دون تاريخ، ص١١٢.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، جزء٤، دار العربية للتأليف والترجمة، القاهرة، من دون تاريخ، ص٢٥٢٣.

(٤) انظر:

مراد كموش: الصورة الذهنية: قراءة ابستمولوجية، مجلة دفاتر البحوث العلمية، المركز الجامعيّ مرسلي عبد الله بتيبازه ، الجزائر، العدد ٥، ديسمبر، عام ٢٠١٤م، ص٢٨.

(١) انظر:

رولان أومنيس: فلسفة الكوانتم، فهم العلم وتأويله، ترجمة أحمد فؤاد باشا، يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٥٠، أبريل، عام ٢٠٠٨م، ص ص ١٥٤-١٥٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نبدأ بالالتفات إلى التفريق بين الصور الخيالية والصور الحسية والعقلية.

أ- الصور الخيالية بوصفها صورًا حسية أوعقلية: الإعتراضات

بداية، تقترب كلمة "Image" في استعمالنا اللغويّ-في كثير من الأحيان- من كلمة "Picture" وكلمة "Mental image"، وقد أصبح تعبير "صورة" صيغة شائعة استطاعت أن تنفذ إلى اللغة العامة التي تجري على الألسنة. ومع ذلك فإن المعاني التي تدل عليها الكلمات الثلاث غير متكافئة على الإطلاق، على الرغم مما يبدو بينهم من ترادف.

وكثيرًا ما نتابع في ترجمة كلمة "Image" من ينقلها إلى لفظ "صورة" فقط، أو "صورة خيالية"، أو "صورة عقلية" من دون أن يكون هناك تفريق بين هذه الكلمات الثلاث. ولا أقول إن استخدام أيّ من هذه الكلمات الثلاث خاطئ كليًّا، ولكنه -ببساطة- يتناول الكلمة عامة؛ لذاوجب علينا التفريق بينهم.

وقد ترجمنا كلمة "Picture" إلى لفظة "صورة حسية" (أي صورة مدركة)، بمعنى أنها تستخدم -دائمًا-؛ لكي تعطي معلومات عن صورة حسية مدركة بالفعل، ولنضرب مثلا يوضح ذلك: إذا كان لدينا صورة حسية لمعبد ما "Pantheon" فإن تلك الصورة يمكن أن تستخدم؛ لكي تعطي معلومات عن عدد الأعمدة الموجودة على واجهة المعبد[1].

ولنقف -الآن- قليلا عند هذه النقطة لنفرق بين الصورة الحسية "picture"، و"Image" التي نميل إلى ترجمتها بـ "الصورة الخيالية"، ونلتفت هنا إلى التمييز الذي قدمه "سارتر" "Sartre" (١٩٠٥م ـــ ١٩٨٠م) في مؤلفه "المخيلة"L' imaginaire .

ويؤكد "سارتر" أنه في حالة الصورة الخيالية "Image" من الممكن ألا يكون لدينا تفاصيل كافية؛ لكي نتمكن من معرفة عدد الأعمدة في واجهة المعبد، على الرغم من أننا قبل أن نسأل الشخص هذا السؤال تأكدنا من أنه فكر أن الصورة الخيالية كانت واضحة له تمامًا، فقد اكتشف عند الإجابة عن هذا التساؤل أنه لم يستطع معرفة العدد الفعليّ للأعمدة؛ لأنه -ببساطة- لم يتمكن من عد الأعمدة التي بالصورة الخيالية[2]. وهنا تكون الصورة الخيالية مختلفة -تمامًا- عن الصورة الحسية.

ومن ناحية ثانية،فالصورة الحسية يمكن أن تكشف عن هويتها "Identified" بشكل تدريجيّ عن طريق تجميع الأدلة أو المعلومات الموثقة Clues؛ إذ إننا في هذه الحالة يكون لدينا صورة فعلية لموضوع ما يختلف عن تأملنا له، أما في حالة "الصورة

(1)A.R.Manser: Images. P.135.
(2) A.R. Manser: P.135.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخيالية" فإنها عندما تظهر في العقل فإن المزيد والمزيد من الفحص الدقيق لن يمدنا بمعلومات موثقة عن هويتها، بل يجب أن ننتظر حتى نتوصل إلى اسم الشيء غير المعروف[١].

إذن؛ الصورة الخيالية لموضوع ما تختلف عن الصورة الحسية للموضوع نفسه.

ومن ناحية أخرى، الصور الخيالية ليست -دائمًا- تحت السيطرة، فالشخص يمكن أن يجد نفسه "مطاردًا" Haunted بصورة خيالية لحادثة في الشارع، أو لصرخات الضحية من دون أي تدخل منه، فالصورة الخيالية تقدم نفسها بشكل عفويّ لا يمكن التحكم فيه.

على هذا النحو أشرنا إلى التفريق بين الصور الحسية والصور الخيالية،ويتبقى لنا الإشارة إلى الصور العقلية والتفريق بينها وبين الصور الخيالية.

مصطلح الصور العقلية Mental image من ناحية جذره اللغويّ، يعني نسخة أو صورة مكررة أو متكررة للصورة الأصلية[٢]. وهو معنى مقارب من معنى الصورة الخيالية، هذا النوع من القرابة يجعلنا نؤكد أن لكلتيهما مكان مختص بهما ومختلف عن المكان المختص بنا الذي نألفه جميعًا،أنه مكان لاواقعيّ، توجد فيه الصور بمواضعها، وعلاقاتها بعضها ببعض، بل وحركاتها اللاواقعية.

وإذ نقول هذا، فإننا نؤكد -أيضًا- أن الصور العقلية مختلفة عن الصور الحسية إذ إنها -أي الصور العقلية- بوصفها حدثًا عقليًّا تكون داخل الوعي نفسه من حيث أنه أفعال تفكير تقصد موضوعات تفكير ومتضمنة في الوقت نفسه مكونات ذاكرة، وعمليات إعادة بناء وتركيب،وإعادة تفسير رموز بوصفها بدائل للموضوعات والمشاعر والأفكار. أي صورة يرتد فيها العقل على نفسه؛ من أجل إعادة النظر فيما يعقله؛ ومن أجل استخلاص العبر والفكر. وهذا يعنى أن حامل الصورة "الذات" يدخل عنصرًا جوهريًا في تكوين الصورة العقلية التي تكون في بؤرة اهتمامه[٣].

والحقيقة أن الصعوبات تبدأ عندما نطرح التساؤل: ما الصورة العقلية؟

---

(1) Ibid. P.135.

(٢) حسام أحمد محمد: سيكولوجية الصور العقلية، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٣) انظر:

- المرجع السابق: ص١٧٤

- محمود رجب: فلسفة المرآة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، عام ٢٠١٥م، ص١٨٢.

- A.R.Manser: images P.135.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالصورة العقلية لا تقبل التحديد، وتستعصي على التعريف؛ لذا فإنني أميل إلى الرأي القائل: إن السؤال عن "ما الصورة العقلية؟" يُطرح بطريقة خاطئة؛ لأن هذا السؤال يعني أن هناك محتوى عقليّ محدد يمكن أن تنطبق عليه كلمات، كما أنه ليس هناك جدوى من سؤال "الذات" Subject كما يفعل علماء النفس Psychologists بأن تسلط "الذات" الضوء "Project" على صورتها العقلية على شاشة Screen؛ إذ إنه من المستحيل أن ننظر إلى العالم الماديّPhysical world ونتأمل الصورة الخيالية عنه في الوقت نفسه(١).

فالملكة نفسها لا تكون أبدًا خارج نفسها،ولا تستطيع أن ترسل نوعها إلى نفسها؛ ونتيجة لذلك فهي لا تستطيع أن تؤلف فكرة عن نفسها(٢).

ولكن هل يستلزم هذا القول بالضرورة أن نسكت عن الكلام عن طبيعة الصور العقلية؟ بالطبع لا،وسنفرد هذا الجزء لمحاولة الفيلسوف الميتافيزيقيّ الأسترالي "آرمسترونج" (١٩٢٦م- ٢٠١٤م) للتصدي للإجابة عن هذا السؤال.

ثالثًا- طبيعة الصور العقلية:

مَثَّل موضوع الصور العقلية -خاصة- صعوبة واضحة لدى أصحاب المذهب الماديّ؛ إذ ينكر الماديون وجود الحوادث العقلية في مقابل الحوادث الفيزيقية. فكل شيء أساسه المادة، وليس لديهم إجابة إذا طلب منهم تفسير لأيّ حالة عقلية، مثل: الخيال،والوعي،... وغيرها(٣).

وعلى الرغم من تلك المصادرة، فقد حاول الماديون أن يقدموا تفسيرًا لطبيعة الصور العقلية عن طريق توضيح الفرق بين الإدراك الحسيّ والصور العقلية، أو بتعبير "هيوم" (١٧١١م-١٧٧٦م) تمييز الانطباعات من الأفكار. وفي استطاعتنا -أيضًا- أن نلتمس نواة لتلك المحاولات لدى فلاسفة العقل -وسنرجع إلى هذا بعد قليل بشيء من التفصيل- رغبة منهم في أن يجدوا تفسيرًا إن لم يكن تجريبيًّا فعلى الأقل موضوعيًّا، وهي الفكرة نفسها التي ناقشها "جلبرت رايل" (١٩٠٠م-١٩٧٦م) في مؤلفه "تصور العقل"

---

(1) Ibid. P.135.

(٢) محمود رجب: مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(3) Bearkly B.Ludlowp: The philosophy of mind, The MIT Press, Massachusetts, Cambridge, London, 1992, P.4.

وكذلك: منى محمد عبد المعطي: في الفلسفة والحاسوب دراسة فلسفية في نتائج علم السيبرنطيقا، دار كلمة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، عام ٢٠١٢م، ص ٣١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

The concept of mind، مؤكدًا وجود تشابه قويّ بين الإدراك الحسيّ (أو الانطباعات الحسية) Sense-impressions والصور العقلية، بل عدّ هذا التشابه وسيلة جيدة يمكن أن نستهل بها بحثنا عن طبيعة الصور العقلية[١].

ما العلاقة بين الإدراك الحسيّ والصور العقلية؟

يكفي أن نشير -على سبيل المثال- إلى ذلك الاقتراح الذي عرضه آرمسترونج "Armstrong, D. M" في مؤلفه "Amaterialist Theory of the mind"؛ إذ نجد لديه عرضًا مفصلا للفلسفة المادية والمذاهب السيكولوجية عن الصور العقلية وطبيعتها مستندًا إلى فكرة وجود تماثل بين الإدراك الحسيّ والصور العقلية، وهي الفكرة التي تربط أكثر الآراء الموجودة في هذه الدراسة.

بداية، أكد "آرمسترونج" أن الصور العقلية لا يمكن أن نقتصرها على الصور البصرية[*] visual image فقط، بل إن " اللحن الذي يجول في رأس الإنسان" هو صورة سمعية Auditory image؛ ومن ثم يمكن أن نطلق عليه -أيضًا- لفظ صورة عقلية؛ وهذا يؤدي بنا إلى القول: إن هناك صورة لمسية Tactual، وصورة ذوقية Gustatory، وصورة شميةOlfactory[٢].

والواقع أن "آرمسترونج" مُحق في هذا القول؛ إذ إن الصور العقلية تشتمل على صور إبصارية وسمعية ولمسية وذوقية وشمية، ونضيف إليها الحركية بوصفها فعلاً يحتوي على الكثير من الصور العقلية[٣].

---

(1) Armstrong, D.M.: Amaterialist Theory of the mind, Routledge, London and new York, 1993,P.291.

(*) من السائد هيمنة الصور البصرية في هذا المجال. وربما يرجع ذلك إلى أن طبيعة الصور العقلية فيما يختص بمعظم الأفراد هي أساسًا بصرية، ولئن كانت الهيمنة المسبقة للصور البصرية مألوفة، فهي ليست شاملة، فبعض الأشخاص –على سبيل المثال- ليس لديه صورة بصرية إلا في لحظة النوم أو في الأحلام، وفي المقابل تحتل الصور السمعية أو الحركية المرتبة الأولى من حيث التأثير والتأثر. إذن؛ هناك تباينات وفروق بين الأفراد في ترتيب كل نوع من الصور العقلية من حيث طبيعة الوضوح ومدى حيوية هذه الصورة عند كل حاسة وفي كل موقف.

انظر: سليمان عبد الواحد يوسف إبراهيم: قراءات في علم النفس المعرفيّ، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، عام ٢٠١١م، ص ٢٣٤.

أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q، تعريب خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت-باريس، عام ١٩٩٦م، ص ٦١٩.

(2) Armstrong, D.M.: OP.CIT, P.291.

(٣) لمزيد من الاطلاع على أنواع الصور العقلية انظر:حسام أحمد محمد: مرجع سابق، ص ١٧٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك فرق آرمسترونج بين "الصور العقلية البصرية" visual mental images و"الصور اللاحقة" After images[*]. وبمعنى آخر فرق بين الصور المرآوية Mirror-images[**] أي الصور ذات الطابع الإنعكاسيّ، والإدراك البصريّ Visual perception (أو الانطباع الحسيّ Sense-impression) الذي يضعف بعد أن يتماثل مع الواقع الماديّ Physical reality[١].

وفي هذا السياق، يفرق آرمسترونج بين صور ماثلة في الخارج، وأخرى ليس لها مقابل خارجيّ. فالصور المرآوية -على سبيل المثال- تتعلق بموضوعات مستقرة في المكان الماديّ الماثل أمامنا، في حين أن الصور اللاحقة غير مرتبطة بموضوع ماثل في الخارج[٢]. هذا إضافة إلى أن الصور المرآوية لا تبقى إلا مع بقاء فعل الإدراك الحسيّ واستمراره، مثلها مثل الأثر على سطح الماء. أما الصور المختصة بالإدراك البصريّ فهي على العكس باقية، حتى بعد غياب موضوعها في الخارج وصورتها الأولى[٣].

وإذا انتقلنا إلى فكرته عن الإدراك الحسيّ وجدنا أنه يؤكد أننا في حالة الإدراك الحسيّ الطبيعيّ، أي في حالة ما إذا كانت حواسنا سليمة لا تلف فيها، نكتسب اعتقادات، ولكن القول بهذا لا يمنعنا من التحدث عن إدراكات حسية لا يصحبها اكتساب اعتقاد ما. وهذا يعني أن أيّ إدراكات حسية لا تعتمد في وجودها على الاعتقادات، ولكن لنفترض -طبقًا لآرمسترونج- أن لدينا إدراكًا حسيًّا لم يكتسب من البيئة الخارجية وكان غير متضمن أي إعتقاد، فإنني في هذه الحالة أفترض أن هذه الإدراكات الحسية ليست إدراكًا حسيًّا، بل هي صور عقلية[٤].

والمعني الذي يتضمنه ذلك الارتباط بين الصور العقلية والإعتقاد: أن الصور

(*) حين تدخل حجرة مظلمة، ثم تنيرها فجأة وتنظر في الضوء بانتباه شديد، ثم تطفيء الضوء فجأة؛ فإنك تلحظ في مجالك البصريّ بقعة ضوئية صغيرة مستديرة الشكل ومحيطها أصفر اللون، ووسطها برتقاليّ اللون، وتستمر بضع ثوان ثم تختفي.

محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد بحث في الفلسفة المعاصرة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، عام ١٩٧٧م، ص ٣٩.

(**) مثل الصورة التي تأتي من المرآة.

(1) Armstrong, D.M.: a materialist theory of the mind, P.291.

(2) Ibid, P.295.

وكذلك: عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، عام ١٩٩٨م، ص ص ١٨- ١٩

(٣) محمود رجب: مرجع سابق، ص ٧٥.

(4) Armstrong, D.M.: OP.CIT, P.300.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقلية -عند آرمسترونج- مفارقة -تمامًا- لعالم الحس أو العالم الخارجيّ، فهي صور لأشياء تأثرت بها الحواس؛ فانطبعت في العقل، ثم نُقلت على هيئة صور عقلية؛ ومن ثم فهي -أيضًا- منفصلة عن الاعتقاد، ولكن يجب أن نلحظ أنه لا يمكن أن تكون لدينا صور عقلية إلا إذا كان لدينا مفهوم لإدراك حسي؛ فمفهوم الإدراك -من الناحية المنطقية- يأتي أولا، في حين أنه من الممكن أن يكون لدينا مفهوم لإدراك حسيّ من دون أن يصحبه مفهوم لصورة عقلية. كما يري "آرمسترونج" أنه لا معنى لأن نتحدث عن الإدراكات الحسية على أنها تحت التأثير المباشر للإرادة، في حين أن هناك معنى لأن نقول ذلك عن الصور العقلية(١).

ونوجز كل ما سلف بقولنا: إنه على الرغم من أن "آرمسترونج" لم يستطع دراسة الصور العقلية دراسة تجريبية، فإنه استطاع إبراز أهمية الإدراك الحسيّ ودوره في تكوين الصور العقلية، وأنه يختلف عن الخبرات الحسية التي سبق للإنسان إدراكها. كما أكد الدور الذي تؤديه الإرادة(*) في لحظة إدراكنا للصور العقلية. وهو ما نؤكد عليه عن طريق هذه الدراسة.

انتهينا في هذا الجزء التمهيديّ من مناقشة التعريفات المختلفة لكل من: "الخيال" و"الصور الخيالية"، وعلينا أن نلحظ -هنا- أن الحديث عن تعريفات للخيال، وأخرى للصور الخيالية، وثالثة للصور العقلية، لا يعني بأي صورة من الصور أنهم كيانات منفصلة، بل يمثلون عمليات أو حوادث عقلية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعضها ببعض. كما تحدثنا عن بعض الفروق المهمة بين الصور الحسية، والخيالية، والعقلية، ثم انتقلنا منه إلى مناقشة طبيعة الصور العقلية، وطرحنا اقتراح "آرمسترونج"؛ لتفسير طبيعة الصور العقلية عن طريق التفريق بين الإدراك الحسيّ، والصور العقلية.

والآن، إذا ما تركنا -جانبًا- التمهيد، وانتقلنا إلى مناقشة التساؤل الرئيس في هذه الدراسة وهو: "هل يعد التفكير تخيلا"؛ وجدنا أن مثل هذا التساؤل وغيره قد شغل -على

---

(١) انظر:

- Ibid, PP.301:302.

وكذلك:

- سليمان عبد الواحد: قراءات فى علم النفس المعرفى ، ص ٢٢٩.

(*) الفيلسوف المثاليّ "جورج باركلي" اعترف بوجود اختلاف أساسيّ في الطبيعة بين صور الحس وصور المخيلة التي ترجع إلى الإرادة الإنسانية.

- انظر: عاطف جوده نصر: مرجع سابق، ص ٢١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحو لا ريب فيه- حيزًا كبيرًا من تفكير الفلاسفة منذ القدم وحتى الآن.

وسنتوقف طويلا عند ما طرحه بعض الفلاسفة بشيء من التفصيل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول – التفكير والصور العقلية... أطروحات فلسفية:

وقع اختيارنا على "هوبز" و"هيوم" بوصفهما ينتميان إلى الاتجاه الماديّ الحسيّ، و"ديكارت" بوصفه ممثلا للإتجاه العقليّ، و"توما الأكويني" بوصفه نموذجًا يجمع بين الاتجاهين، وقد حاول كل منهم مناقشة التساؤل الرئيس في دراستنا: "هل يعد التفكير تخيلا؟"، وقد جاءت إجابتهم مختلفة -كما سيتضح لنا- لا من حيث الموضوع، بل من حيث الرؤية والتناول.

ولسنا في حاجة إلى القول: إننا نغوص في أعماق أعمالهم، بل -بالأحرى- نركز على تلك الموضوعات التي يسهمون بها في موضوعنا. ولنبدأ بآراء "توماس هوبز".

أ- "توماس هوبز"Thomas Hobbes (١٥٨٨م-١٦٧٩م)

يعد "هوبز" ذا أهمية خاصة لموضوعنا؛ لكون أفكاره حول التخيل العقليّ mental imagery ستظل محتفظة بقدر من التواجد في التطورات اللاحقة للفلسفة وعلم النفس على السواء؛ إذ إنه قد بحث في الظواهر النفسية بوصفها ظواهر مادية يمكن ملاحظتها وردها إلى الظروف المحيطة، وفهم محتويات التجربة الإنسانية بوصفها أنماطًا من الحركة. بل يمكننا القول: إنه سبق بثلاثة قرون -تقريبًا- آراء السلوكيين المعاصرين في علم النفس، الذين حاولوا أن يردوا كل العمليات العقلية إلى استجابات لمنبهات(١).

ويهمنا في بحث موقفه من الخيال ما كتبه في مؤلفه "التنين"(*) Leviathan في الفقرات الأولى من الفصل الثاني الذي جاء تحت عنوان "الخيال" قائلا:

"لا يشك أحد -الآن- في الحقيقة القائلة: إن الشيء إذا كان ساكنًا، فإنه يظل ساكنًا إلى الأبد، مالم يحركه شيء آخر. أما إذا ما كان في حالة حركة، فإنه سيظل كذلك في حالة حركة إلى الأبد مالم يوقفه شيء أخر..."(٢)

ومعنى ذلك، أن الجسم قاصر بذاته عن تغيير حالته، ولا بد من مؤثر خارجيّ

---

(١) انظر: صفاء عبد السلام: قراءة للمصطلح الفلسفيّ، ص ١٥٨.
وكذلك: وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، عام ٢٠١٠م، ص٨٣.

(*) الطبعة الأصلية لكتاب "التنين" ظهرت عام ١٦٥١م.

(٢) انظر في هذا:
- Hobbes, Thomas, C.B.Macpherson: Leviathan, Penguin classics, copyright©, 1985, P.87.
- Hobbes, Thomas: Of Imagination, Ed in, The philosophy of mind, Ed by, Bearkly.B and Ludlowp, chapter 23, Cambridge Massachusetts, London, England, The MIT press©, P. 175.
- إمام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز فيلسوف العقلانية، سلسلة الفكر المعاصر (٥)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، عام ١٩٨٥م، ص ١٧٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو "القوة". وهنا نلحظ أن "هوبز" قد اتخذ من قانون القصور الذاتيّ law of inertia أساسًا؛ ليستنبط منه فكرته عن الخيال(١).

ويسوق "هوبز" مثالا توضيحيًّا يقول فيه:

"... وتلك هي الحال التي نشاهدها في أمواج البحر، فالريح تهب قوية؛ فتحرك الأمواج بعنف، لكنها عندما تتوقف فإن الأمواج لا تهدأ في الحال، بل تحتاج إلى فترة قد تطول قبل أن تكف عن الحركة. وذلك ما يحدث -تمامًا- في حركات الأجزاء الداخلية في جسم الإنسان عندما يرى أو يسمع... إلخ، حتى بعد اختفاء الموضوعات الخارجية (مصدر الصوت أو موضوع الرؤية) وابتعادها، وبعد أن يغلق المرء عينيه فإنه يظل محتفظًا بصورة الشيء الذي رآه، هذا مع أن الصور قد تكون أكثر غموضًا وتعتيمًا مقارنة بما كانت عليه -من الأول- وهذا ما يطلق عليه اللاتين الخيال Imagination، والكلمة مشتقة من الصورة الخيالية Image التي تحدث في حالة الإدراك الحسيّ سواء أكان إبصارًا أم سمعًا... "(٢).

وفي هذا النصّ تتجلى وتتكشف مادية "هوبز"، الذي يمد نطاق التفسير الميكانيكيّ من ظواهر الحياة إلى الظواهر العقلية. فكلمة الحركة الواردة في النص تدل على أن الخيال عملية حركية دينامية(*) ناشئة من ضغط موضوع خارجيّ على عضو من أعضاء الحس، ويثير هذا الضغط على أعضاء الحس حركة تصل إلى المخ. فالإدراك الحسيّ إذن هو أصل التخيل. وهذه الفكرة وما يتفرع منها من أفكار مساهمة "هوبز" الحقيقية في ميدان علم النفس كما سيتضح لنا فيما بعد(٣).

كما أننا لا نستطيع بأي حال من الاحوال أن نغفل تأثيره الواضح حين قال:

"... التخيل ليس سوى الحس الذابل Decaying sense، إنه الإحساس الذي يتلاشى أو يذبل وهو موجود عند الإنسان وعند كثير من الموجودات الحية الأخرى

---

(١) لمزيد من الاطلاع انظر: -يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين الأصول –الحصاد- الآفاق المستقبلية، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٤، ديسمبر، عام ٢٠٠٠م، ص ٨٤.

(٢) انظر: إمام عبد الفتاح إمام : مرجع سابق، ص١٨٠.

- Hobbes, Thomas, C.B.Macpherson: OP.CIT. P.88.
- Hobbes, Thomas: OP.CIT.P.175.

(*) ربط "أرسطو" قبل "هوبز" بين التخيل والحركة؛ فالخيال حركة يسببها الإحساس؛ إذ لا يتأتي للخيال أن يوجد من دونه. انظر: عاطف جودة نصر: مرجع سابق، ص٧.

(٣) يمنى طريف الخولي: مرجع سابق، ص ١٢٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سواء أكان في اليقظة أم النوم، غير أن ذبول الحس عند الناس في حال اليقظة، ليس هو نفسه ذبول الحركة التي حدثت في الحس، بل هو اعتام Obscuring لها بالطريقة نفسها التي يعتم بها ضوء الشمس ضوء النجوم الأخرى... فهناك عدد كبير من الإحساسات تطرق طبلة الأذن، أو العين، أو أعضاء الحس الأخرى من الأجسام الخارجية، لكن الحس الذي يطرق بقوة وتكون له السيادة هو وحده الذي نحسه..."[١].

وقد أشرنا في النص السابق إلى أن الإحساس والإدراك هما أصل التخيل، ونضيف إلى هذا أنه لئن كانت صور الإدراك الحسيّ تبدو مشابهة لصور التخيل، إلا أنه يوجد فرق بينهما تحكمه فكرة القوة والضعف، وتوجهه مقولة الوضوح والغموض، فصور التخيل أغمض من صور الإحساس.

وهي الفكرة نفسها التي ستتردد كثيرًا عند الفلاسفة وعلماء النفس فيما بعد[٢].

وما نود أن نختم به هذه الفقرات -من الناحية الابستمولوجية- أن المادة سابقة على الفكر، بل إن الفكر نفسه من المستحيل أن يوجد من دون شروط مادية. فالبدايات الأولى للمعرفة -كما يقول "هوبز" نفسه- هي الصور العقلية، أي صور الحس والمخيلة[٣].

والواقع، أن التفسير الماديّ للأحداث العقلية غير كافٍ، ولا يمكن للأحداث الفيزيائية أن تُفسر بصورة تامة عن طريق قوانين الحركة من دون الإشارة إلى العمليات أو الحوادث العقلية.

وإذا ما عدنا -الآن- إلى التساؤل المطروح في هذه الورقة البحثية: "هل يعد التفكير تخيلا؟"، ونظرنا إليه في ضوء ما ذكرناه عن "هوبز" تكون الإجابة عنه بالإيجاب

---

(١) انظر: إمام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز ... ، ص ص١٨٠،١٨١.
وكذلك:
Hobbes, Thomas: of imagination , P.175.
- Hobbes, Thomas C.B.Macpherson: Leviathn, P.88:89.
- A.R.Manser: imagination .P.133.

(2) لمزيد من الاطلاع انظر:
عاطف جودة نصر: مرجع سابق، ص ٧.
(٣) إمام عبد الفتاح إمام: مرجع سابق، ص ١٧١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(نعم). ولم "نعم" ؟ لأنه طبقًا لـــ "هوبز" يوجد مماثلة بين الصور العقلية والتفكير، فما تأتي به الحواس إلينا هو صورة عقلية أو "خيالات". فالصور العقلية إذن هي أفكـــار، والتخيـــل هو ما يسميه التفكير بمعناه الواسع.

وننتقل الآن إلى فيلسوف آخر، قدم أفكارًا مهمة، ستتردد أصداؤها بشكل أو بآخر فيما بعد، بل يمكننا القول: إن أفكاره تكاد -في بعض الأحيان- تتفق -إلى حد كبير- مـــع أحدث نتائج علوم فسيولوجيا الأعصاب وعلم النفس المعرفيّ في القرن العشرين.

وفيلسوفنا هو "ديفيد هيوم" الذي مثل معلمًا من معالم تاريخ الفلسفة.

ب- "ديفيد هيوم" David Hume(١٧١١م-١٧٧٦م)

كتب "هيوم" مؤلفه "رسالة في الطبيعـــة الإنـــسانية" "A Treatise of Human Nature" عام ١٧٣٧م، وجاء المجلد الأول منه في الفهـــم "of the Understanding" وفي الجزء الثالث Sec III ناقش موضوع الذاكرة والخيـــال تحـــت عنـــوان "of The Ideas The Memory and Imagination".

بداية، استخدم "هيوم" كلمة "إدراكات حـــسية" Perceptions؛ لكـــي يـــشير إلـــى محتويات العقل الإنسانيّ عامـــة، وقـــسم الإدراكـــات الحـــسية إلـــى انطباعـــات حـــسية Impression، وأفكار Ideas[1]؛إذ إن مصدر المعرفة (الإدراك المعرفـــيّ) Cognition يتأتى عن طريق انطباعات حسية Impression of Sensationوأفكار. وعليه؛ تكون كل الأفكار البـــسيطة Simple Ideas نـــسخ مـــشتقة مـــن انطباعـــات بـــسيطة Simple Impression، وكل الأفكـــار المركبـــة هـــي نـــسخ لانطباعـــات مركبـــة Complex Impression، وربما ينشأ الخيال؛ نتيجة تركيب الأفكار البسيطة والتوحيد بينهـــا (عـــن طريق علاقات خاصة). كما تحدث المعرفة Knowledge عن طريق تشابه الأفكار[2].

ومن هذا المنطلق يمضي "هيوم" في اتجاهه التجريبيّ إلى تحليل أفكارنا، ويـــرى أن إدراك بقعة حمراء هو انطباع بسيط، وصورة البقعة الحمراء فكرة بسيطة، غير أننـــي إذا وقفت على سطح جبل "مونتمارتر" وتأملت مدينة باريس؛ فإنني أدرك انطباعًا مركبًـــا عن المدينة، والأسطح، والمداخن، والأبراج، والشوارع، وعندما اتصور باريس بعد ذلـــك وأستدعي هذا الانطباع المركب، يكون لديّ فكرة مركبة. وفي هذه الحالة تنـــاظر الفكـــرة

(١) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة المجلد الخامس، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح، المشروع القوميّ للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد ٤٥٥، عام ٢٠٠٣م، ص ص ٣٣٦،٣٣٧.
(2)Julius R.Weinberg: Hume, David, Ed in, Dictionary of philosophy, ,P.132.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المركبة -إلى حد ما- الانطباع المركب، على الرغم من أنها لا تناظره بدقة ولا بصورة كافية[١].

ومن هذا السياق، وطبقًا لـ "هيوم"، يمكن تفكيك تجربة مركبة إلى انطباعاتها البسيطة المكونة لها، بل ويمكن إرجاع عناصر فكرة ما جميعها إلى انطباعات، مادام للأفكار أصل "منظم"، ونتساءل ماذا لو لم يكن هذا ممكنًا؟ فستكون لدينا أفكار غير ملائمة.

وهنا تصبح الأبستمولوجيا نقدًا للمعرفة؛ لأنها ترفض مثل هذه الأفكار بوصفها غير مقبولة ولا يمكن الدفاع عنها[٢].

وعلى أية حال، فقد أفصح "هيوم" عن رأيه حول "الخيال" قائلا:

"وجدنا بالخبرة(الحسية) Experience أنه عندما يُقدم أيّ انطباع (حسيّ) للعقل؛ فإنه يظهر مرة أخرى بوصفه فكرة idea، ويمكن أن يحدث هذا بطريقتين مختلفتين: الأولى- عندما يظهر الانطباع من جديد؛ فإنها تحتفظ بدرجة من حيويتها الأولى (الأصلية) First vivacity، وتكون وسطًا بين وضوح انطباع ما وخفوت فكرة ما. والملكة التي نعيد عن طريقها انطباعاتنا بهذه الطريقة هي ما يسمى بالذاكرة Memory، أما الثانية- فإنها يمكن أن تظهر من جديد بوصفها أفكارًا خاصة، أي بوصفها نسخًا باهتة خافتة، أو صورًا من انطباعات، والملكة التي نعيد عن طريقها انطباعاتنا بهذه الطريقة هي الخيال Imagination..."[٣].

وبهذه العبارة التي ذكرها "هيوم" يتضح أن درجات الوضوح في الإدراك ثلاث: أكثرها وضوحًا هو: الانطباع الحسيّ حال وقوعه،فليس هناك مدرك يترك انطباعًا في النفس أكثر حيوية منه- وأبعدها عن الوضوح الفكرة التي يأتي عليها حين من الدهر، وهذا

---

(١) فردريك كوبلستون: المرجع السابق، ص ٣٣٧.

(٢) انظر:

-غنار سكيربك ونلزغيلجي: تاريخ الفكر الغربيّ من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، أبريل، عام ٢٠١٢م، ص ص ٤٩٠: ٤٩١ .

-برتراند رسل: حكمة الغرب "الجزء الثاني" الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، العدد٧٢، ديسمبر، عام ١٩٨٣م، ص١٣٣.

(3) Hum, David: Atreatise of Human nature, being an attempt to introduce the experimental Method of reasoning into moral subjects, Cavalier classics, Republished, 2015, P.8.

وكذلك:

- Hum, David: Of the idea of memory and imagination, Ed in, The philosophy of mind, P. 181

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو الخيال الذي عادة ما يحيد عن تمثل ما وقع من وقائع. أما الذاكرة فهي وسط بين هـذا وذاك، فمعتقد الذاكرة تمثيل مدركًا ليس له وضوح الانطباع الحسيّ، ولا غموض الخيال[١].

وباختصار... الصور العقلية عند "هيوم" نسخ خافتة من الأصل المدرك، وصورة أقل منه، لكنها -في جوهرها- نسخ محاكية لذلك الأصل، لا تختلف عن الأثر الحـسيّ إلا من حيث أنها أضعف منه وأوهن. أي أنهما يختلفان درجة لا نوعًا.

وكل هذا يقودنا إلى القول: إن لأيّ انطباع حسيّ يوجد "نسخة التقطهـا العقـل"، وهي تبقى في العقل حتى بعد أن يختفي الانطباع الحسيّ ويزول، وتسمى هـذه النـسخة "فكرة" Idea؛ إذ إن المحتوى الفريد للعقل الإنسانيّ يكمن -أساسًا- في انطباعات أصـيلة ونسخ محاكية لذلك الأصل[٢].

ولنقف -الآن- قليلا عند افتراض "هيوم" الذي يقوم على أساس درجتـي: (القـوة والحيوية). بداية، نتفق مع "هيوم" في أن الصور العقلية حقيقة معترف بوجودهـا، ولكـن ليس من الضروريّ أن نفكر في الصور العقلية على أنها تضعف تدريجيًّا، وربما ينطبـق هذا الوصف في حالة الصورة اللاحقة After images -كما بيّنا سابقًا- كما أن التفريـق بين الانطباعات الحسية والأفكار أو الصور العقلية[*] -فـي ضـوء أبعـاد مـن القـوة والحيوية- لا يمثل فواصل قاطعة بين هذين النوعين في بعض الأحيان[٣].

وقد فند "آرمسترونج" -أيضًا- هذا المعيار قائلا:

"إن هذا المعيار المقترح للتفريق بين الـصور العقليـة والإدراك الحـسيّ (أو الانطبـاع الحسيّ) غير مُرضٍ؛ إذ إن بعض الصور العقلية يمكن أن يكـون لـديها القـوة Force والحيوية vivacity نفسها التي للإدراك أو الانطباع الحسيّ، كما أن الصور العقلية احيانًا ما تكون غامضة ومضطربة عندما ترتبط بالتفكير الواعي"[٤].

وفي النهاية، ارتأينا أنه لابد من إضافة أن الخيال -طبقًـا لـ "هيـوم"- ينتقـل بسهولة من فكرة إلى أخرى تشبهها وفق بعض المباديء العامة للتداعي، وهي التي تؤول إلى تصورات ترابطية. فعندما تكون فكرة ما ماثلة للخيال، فإن أي فكرة أخرى تتصل بها عن طريق التشابه، والاتصال أو العلية تتبعها، كما أن الانطباعات المتشابهة كلها تـرتبط

---

(١) نجيب الحصاديّ: تقريظ العلم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، عام ١٩٩٠م، ص٨٣.
(2) A.R.Manser: Images PP. 133,134.
(*) يشن "جلبرت رايل -هو الآخر- هجومًا على هذا التفريق بين الأفكار والانطباعات، وسنرجع إلى هذا بعد قليل بشيء من التفصيل في الجزء المختص بـ "رايل".
(3) Ibid, P.135.
(4) Armstrong D.M.: A materialist theory… , P.295.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معًا، فلم يكد ينشأ انطباع حتى تتبعه بقية الانطباعات مباشرة. (وتختلف الانطباعات عن الأفكار في أنها لا تتداعى إلا عن طريق التشابه فقط)[1].

وأخيرًا وليس آخرًا، نستدل من آراء "هيوم" على أن الإجابة عن التساؤل: هل يعد التفكير تخيلا؟ ستكون بالإيجاب (نعم)؛ لأن الأفكار، أو الصور الخيالية Image والانطباعات يطابق كل منها الآخر إلى حد التشابه.

كانت هذه نظرة موجزة عن "هوبز" و"هيوم"، وقد تضمنت أن كليهما انطلق من مبدأ واحد، ألا وهو عد المعرفة نتاج تأثير العالم الخارجيّ عن طريق الحواس، فالموضوعات الخارجية تؤثر في الذات، وتطبع فيها صورًا؛ إذ يصبح الواقع في النهاية هو المصدر الأول لكل معرفة.

وعلى الرغم من نقدنا تلك النظرة الأحادية الجانب للمعرفة، فإننا لا ننفي الدور الذي تقوم به التجربة بوصفها مصدرًا أساسيًّا من مصادر المعرفة، بل نوضح أن القراءة التجريبية بوصفها مصدرًا للمعرفة ليست كافية.

وقد أصاب كل من "هيوم" و"هوبز" القول إننا ليس لدينا معرفة بعالم معقول، وفي أن معرفتنا محددة بالعالم المحسوس، إلا أنهما أخطآ في تقرير أن الانطباعات الحسية والتصورات التجريبية كافية لتمكيننا من معرفة العالم المحسوس.

وقد طبق "هوبز" و"هيوم" كليهما مقولة "أرسطو":

"من المستحيل أن يوجد التفكير من دون صورة عقلية"؛ إذ إن الأشياء المادية خارج الذهن مناظرة لأفكارنا الواضحة عنها. فكل تفكير يحمل صورة خيالية؛ وعليه فإن التفكير من دون صورة عقلية مستحيل.

والآن، لنطرح جانبًا رؤى "هوبز" و"هيوم"؛ لنتجه صوب طرح مختلف -عفوًا- في طريقة التناول وليس الاختلاف في طبيعة الموضوع نفسه، وفي هذا السياق يبرز من بين الفلاسفة "ديكارت".

---

(١) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ص ٤٠٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جـ- رينيه ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦م-١٦٥٠م).

الفكرة الرئيسة التي ينطلق منها الفلاسفة العقلانيون -عامة- هي أن إدراك حقائق الأشياء ليس مرهونًا بشهادة الحواس، نعم إن الإدراك الحسيّ قد يأتي مؤيدًا لما يدركه الإنسان بعقله الخالص، لكن العيان العقليّ ليس بحاجة إلى ذلك التأييد، وإذا جاء الإدراك منافيًا لما يحكم به، نسبنا الخطأ إلى الأول؛ لاستحالة أن يخطئ الثاني(١).

ويعبر ديكارت عن الموقف الكلاسيكيّ للثنائية(*)، وفي مؤلفه "التأملات" بدأ من خبرته بوجوده العقليّ وأثبت وجود الله، ثم كرَّ راجعًا إلى العالم، باحثًا عن طريق يقوده إلى البحث فيما إذا كانت الأشياء المادية موجودة؛ ولهذا حاول "ديكارت" في التأمل السادس Sixth Meditation أن يقدم الدليل على وجود الأشياء المادية قائلا: "لم يتبقّ إلا البحث فيما إذا كانت الأشياء المادية موجودة. بالتأكيد، إنني أعرف أنها توجد بمقدار ما نعدها موضوعات رياضية بحتة (Pure Mathematic)؛ لأنه من هذا الجانب أدركها (أي الأشياء المادية) بوضوح وتميز Clearly and Distinctly؛ لأنه ما من شك أن الله لديه القوة والقدرة على إنتاج Produce [خلق] كل ما أكون قادرًا على إدراكه Perceiving بوضوح. ولم أحسب Deemed أن أيّ شيء مستحيل عليه (الله سبحانه وتعالى) ما لم أجد تناقضًا في محاولة تصور Conceive هذه الأشياء بوضوح.إضافة إلى ذلك ملكة الخيال Faculty of Imagination الموجودة لديَّ، وهي التي تخبرني التجربة أنتفع بها عندما أنظر بعين الاعتبار في الأشياء المادية، فهذه الملكة (الخيال) تكون قادرة على إقناعي بوجود الأشياء المادية. وعندما أستطيع أن أدرك ما هو الخيال بانتباه Attentively، أجد أنه ليس سوى تطبيق بعينه لملكة المعرفة على الجسم Body الذي يكون حاضرًا بصورة مباشرة فيما يختص بملكة الخيال؛ ومن ثم يكون [الجسم]

---

(١) زكي نجيب محمود: المنطق الوضعيّ الجزء الثاني في فلسفة العلوم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، عام ١٩٨٠م، ص ص ٢١٠،٢١١.

(*) عادة ما يُعرَّف "الثنائيون" بأنهم أصحاب المذهب القائل بوجود نوعين مختلفين من الجواهر: "الجوهر الماديّ" وهو موضوع للعلوم الطبيعية، و"الجوهر العقليّ" وهو الموضوع الذي تتكون منه الحالات الشعورية. فالإنسان لديهم مكون من عقل وجسم.

انظر:

- Bearkly B, Ludlowp: The Philosophy of mind …, P.3.

وكذلك: منى محمد عبد المعطي، فى الفلسفة والحاسوب ... ، ص٢٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موجودًا..."[١].

والمتأمل في هذا النص لا يفوته أن يلحظ أن "ديكارت" لم يصل إلى وجود الأشياء المادية إلا بعد أن وصل إلى اليقين بوجود الله بوصفه ضامنًا لوجود العالم الخارجيّ.

فالله كامل؛ وبهذا الوصف لا يمكن أن يكون مخادعًا؛ ومن ثم فالصدق الإلهيّ هو الضامن الحقيقيّ لتفكيرنا وعلمنا جميعهما[٢]. ويتبع ذلك قاعدة عامة وهي أن الأشياء التي أدركها بوضوح وتميز جميعها صادقة[٣].

وهنا يضع "ديكارت" شرطًا أساسيًا؛ لكي نؤسس معرفتنا، إنه حضور الفكرة أمام العقل، ويضيف إلى ذلك شرطًا فرعيًا، وهو أن تكون الفكرة الحاضرة أمام العقل "واضحة متميزة"[٤].

ويخبرنا "ديكارت" في مؤلفه "مبادئ الفلسفة" أن ما يسميه "واضحًا" هو ذلك الذي يكون حاضرًا ومتجليًا للعقل المنتبه، على النحو نفسه الذي نؤكد فيه أننا نرى بوضوح موضوعات تكون حاضرة أمام العين الشاخصة، فهذه الموضوعات تؤثر فينا بقوة كافية. أما ما يكون "متميزًا"، فهو ذلك الذي يكون محددًا بدقة ومختلفًا عن سائر الموضوعات الأخرى، لدرجة أنه لا ينطوي في داخله على أيّ شيء سوى ما يكون واضحًا[٥].

ولا شك أن الرياضيات هي التي أوحت إلى "ديكارت" هذا المعيار للحقيقة، فالقضية الرياضية الصادقة تبدو كما لو كانت تفرض نفسها على العقل، فهي عندما تشاهد بوضوح وتميز، لا يكون في وسع العقل سوى إقرارها[٦].

ولم يكن "ديكارت" تجريبيًّا بأية حال مثل "هوبز" و"هيوم"، بل إن نقطة انطلاق

---

(1) Descartes, René: From meditation VI and from Objection IV and Reply, Chapter 24, Ed in, The Philosophy of Mind, OP. CIT, P. 179.

- وكذلك انظر:

- Elizabeth Anscombeand Peter Thomas Geach: Descartes, philosophical writings, Nelson's university paper backs, The open university press, Printed in Hong Kong, 1954, P.109.

(٢) يحيى هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، عام ٢٠٠٦م، ص ٤٧، ٧٤.

(٣) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة (من ديكارت إلى ليبنتز)، ترجمة وتعليق سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المركز القوميّ للترجمة، القاهرة، العدد ٢٠٣٢، عام ٢٠١٣م، ص ١٤٣.

(٤) زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ... ، ص ص ٢١٧- ٢١٨ .

(٥) فردريك كوبلستون: مرجع سابق، ص ص ١٤٣- ١٤٤ .

(٦) المرجع السابق: ص١٤٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إبستمولوجيا "ديكارت" العقلية كانت في الأفكار التي تبدو واضحة ومتميزة لعقولنا[١] -كما نوهنا من قبل-، ولكن التجربة الحسية يمكن أن تهيئ المناسبة التي على أساسها تتشكل هذه الأفكار، أي الأفكار الواضحة المتميزة؛ فيدرك العقل تلك الأفكار التي يستنتجها -إن جاز التعبير- من امكاناته الباطنة الخاصة[٢]. إضافة إلى ذلك ملكة الخيال التي تكون قادرة على إقناعي بوجود الأشياء المادية، كما أن معرفة الإنسان لجسمه تتم عن طريق ملكة الخيال، والتخيل -هنا- معناه أن أستحضر صورة أو شكل جسم ماديّ؛ ومن ثم فإن التفكير العقليّ أو التصور الذهنيّ ليس ممكناً من دون الاستعانة بالجسم[٣].

وينتقل "ديكارت" بعد ذلك إلى وضع تفرقة محددة تحديدًا دقيقًا بين الخيال من ناحية والتصور Conception أو التعقل الخالص Pure intellection من ناحية أخرى. وقد كتب موضحًا الفرق بينهما في مؤلفه "التأملات" (التأمل السادس) على النحو الآتي:

"...عندما أتخيل مثلثًا أتصوره Conceive بوصفه شكلا ذا ثلاثة أضلاع، ولكني اتصور -أيضًا- أن هذه الأضلاع الثلاثة موجودة عن طريق قوة عقلي ورؤيتي الباطنة Inward vision؛ فأرى هذه الأضلاع الثلاثة بوصفها حاضرة، وهذا ما أطلق عليه تخيلاً Imagining؛ ولكن إذا أردت أن أفكر في شكل له ألف ضلع "Chiliagon"، فإني أتصور أنه شكل له ألف ضلع بالسهولة نفسها التي أتصور بها أن المثلث ثلاثيّ الأضلاع فقط، ولكن لا يمكنني أن أتخيل الألف ضلع ولا يمكنني أن أعدها موجودة، كما أتخيل المثلث ذا ثلاثة أضلاع.وعلى الرغم من أنه قد يحدث -وفق ما اعتدت عليه دومًا- أن أستخدم مخيلتي عندما أفكر في الأشياء الجسمانية Corporeal things، فإنني إذ أتصور الشكل ذا الألف ضلع تمثلاً لا يخلو من الغموض، ومع ذلك أدرك بوضوح أن هذا الشكل ليس ألفيًّا [أي له ألف ضلع]؛ لأنه لا يختلف أبدًا عن الشكل الذي يمكن أن أتمثله لو أني فكرت في شكل ذي عشرة آلاف ضلع "Myriagon"، أو في أي شكل آخر أضلاعه لا تعد ولا تحصى؛ لأنه لا يقوم بمهام في الكشف عن الخصائص التي تفرق بين الشكل الذي له ألف ضلع وغيره من الأشكال ذات الأضلاع التي لا تحصى... أعرف في وضوح أني محتاج؛ -لكي أتخيل- إلى مجهود عقليّ خاص لا أحتاج إليه؛ لكي أتصور أو أتعقل، وهذا المجهود الخاص يبين الفرق بين التخيل والتعقل الخالص"[٤].

---

(١) غنار سكيربك و نلزغيلجي: تاريخ الفكر الغربى ... ، ص٤١٥.
(٢) فردريك كوبلستون: مرجع سابق، ص١٢٥.
(٣) يحيى هويدي: مرجع سابق، ص٧٣.
(4) Descartes, René: from meditation VI,.,.. , P.179.

وكذلك:

-Elizabeth Anscombe and Peter Thomas Geach :Descartes , PP.109-110.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويشير هذا النص إلى أن الفهم عملية عقلية خالصة لا علاقة لها بالجسم المـــاديّ، غير أن الحالات العقلية الأخرى -كالإدراك والتخيل- تعتمد على تجاربنا في العالم، وبهذا يسير "ديكارت" قدمًا في اتجاهه الثنائيّ، فعقولنا تستطيع أن تدرك التصور في الحال عـــن شكل ذي ألف ضلع، لكننا كثيرًا ما نجد صعوبة في تخيل صورة عقلية عـــن أحـــد هـــذه الأشكال، فخيالنا أقل كفايةً؛ بسبب أنه يتضمن عمليات فيزيقية عادية في المخ؛ ويفسر ذلك أن بعض الحالات العقلية -كما سبق أن بيّنّا- تعتمد على الجسم، فـــي حـــين أن بعـــضها الآخر -كالفهم- هي حالات "خالصة"[١].

وبالتعقل نتصور الأشكال عمومًا وبلا تحديد، بمعنى أننا نستطيع أن نتصور فكرة اللاتناهي؛ إذ إنني أتصور أن المثلث يقبل من التغيرات عددًا لامتناهيًا، كأن يكون له ألف ضلع مثلثًا، بالسهولة نفسها التي أتصور بها مثلثًا ثلاثيّ الأضلاع، في حين أننـــا بالتخيـــل نتمثل أشكالا معينة محدودة، فلا أستطيع بخيالي أن أستعرض هذا العدد اللامتناهي؛ كـــي يطابق التنوع الذي يظهر به وعليه الواقع لي، فالمخيلة لا تتخيل إلا المحسوس.

كما أنني أحتاج إلى مساعدة العقل؛ لكي أتخيل، في حين لا أحتاجه حين أتـــصور أو أتعقل[٢].

وتمشيًا مع أفكار "ديكارت" تكون الإجابة عن السؤال: هل يُعـــد التفكيـــر تخـــيُّلاً؟ بالنفي (لا). فطبقًا لما تضمنه التفريق بين الخيال والتعقل الخالص، يمكننا أن تكون لـــدينا فكرة عن شكل له ألف ضلع، في حين لن تكون لدينا قط أيّ صورة عقلية عنه.

فالفكر ذاته لا صورة له وهنا يختلف ديكارت مع أرسطو لأنه لا يعترف بوجـــود صورة فى الخيال .

كانت هذه -باختصار- الخطوط الرئيسة لأفكار "ديكارت" حول الخيال والتفكيـــر، وربما كانت أهميته على المستوى الإبستمولوجيّ فيما أكده أن المعرفة لم تكتسب من العالم الخارجيّ، بل يتضمنها عقل الإنسان بالفطرة.

---

(١) ديف روبنسون و كريس جارات: ديكارت، ترجمة إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد ٢٥٦، عام ٢٠٠١م، ص١٢٢.

(٢) انظرفي هذا:

- جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كمال، مراجعة فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، عام ١٩٦٨م، ص ٢١.

- ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، نفائس الفلسفة (٣)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، عام ١٩٦٩م، ص٢٣٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما كان "ديكارت" واسع الافق حين أدرك أن التفكير الإنسانيّ شيء مختلف اختلافًا جذريًّا عن حركات الجزيئات المادية -كما لحظ "هوبز [*]-، وأدرك أن كليهما موجود، وأنه لا يمكن رد أحدهما إلى الآخر، وأن التغيرات في كل منهما يتبعها -أحيانًا- تغيرات في الآخر، ولقد كان "ديكارت أمينًا وواجه الواقع كله، وإن واجهته صعوبات لم يتمكن من حلها[١].

وفي النهاية، أجد نفسي حائرةً؛ لأنني لم أستطع حسم الموقف لصالح أحدهم، أي "هوبز" و"هيوم" من ناحية، و"ديكارت" من ناحية أخرى. فكل منهم أصاب في جانب وأخفق في جوانب أخرى؛ ومن هنا كانت صعوبة التوصل إلى فهم تام للسؤال عمّا إذا كان التفكير تخيُّلا؛ ولهذا سأترك -الآن- تلك الآراء؛ كي أنتقل إلى فيلسوف آخر، علنا نجد لديه معالجة تكشف طريقًا لصياغتها معًا بصورة متسقة.

د- "توما الأكويني"Thomas Aquinas (١٢٢٥م-١٢٧٤م)

دمج القديس توما الأكويني -في القرن الثالث عشر- نظرية المعرفة في فلسفته العامة، وقرر أننا نكتسب المعرفة عن طريق الخبرة الحسية وعن طريق التفكير بما خُبرناه، فكل أفكارنا الطبيعية ومعرفتنا مؤسسة في التجربة، ولا وجود لشيء في العقل قبل وجوده في الحواس أولا؛ وعليه لا وجود لأفكار فطرية في العقل[٢].

وقد كتب "الأكويني" في معرض حديثه عن فكرته ما يأتي:

"من المستحيل لعقولنا -في حالة ارتباطها بجسم قادر على تلقي الانطباعات- أن تفهم أي شيء من دون الرجوع إلى صور حسية Sense-Images، وذلك واضح عن طريق: أنه لما كانت هذه الملكة لا تستخدم عضوًا جسمانيًا Corporeal organ، فإن العقل Intellect لن يعوقه أيّ أذى إذا أصيب بالفعل العضو الجسمانيّ بهذا الضرر... ولكن الحواس Senses والخيال Imagination والملكات الأخرى في الجانب الحسيّ للإنسان تستخدم بالفعل الأعضاء الجسمانية؛ ومن ثم فمن الواضح -فيما يختص بالعقل-

---

(*)من الملحوظ –أيضًا- أن "هوبز" كان أكثر اتساقًا -من الناحية المنطقية- من "ديكارت" في الفقرات التي يصر فيها على أن كل تفكير يتكون -ببساطة- من حركات في المخ.
انظر: وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة ... ، ص ١٠٥.
(١) المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٢) لمزيد من الاطلاع انظر: فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة المجلد الرابع ... ، ص١٠٧.
وكذلك: غنار سكيربك و نلزغيلجي: تاريخ الفكر الغربى ، ص٢٨٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه لفهم أفعال الخيال والملكات الأخرى تكون ضرورية (أي الأعضاء الجسمية)، ليس فقط في اكتساب معرفة جديدة، ولكن -أيضًا- في استعمال المعرفة التي اكتُسبت بالفعل.ونرى -في الواقع- أنه إذا كانت أفعال الخيال تصاب أو تتأثر بأيّ إصابة للعضو الخاص، مثال ذلك: إذا أصيبت أفعال الذاكرة الحسية Acts of sensememory بحالة غيبوبة؛ فإن الإنسان يتأثر فيما يتعلق بفهم الأشياء التي كان يعرفها من قبل (تتأثر المعارف المختصة به)"[١].

ويتضح من النص السابق؛ أن العقل يعتمد اعتمادًا ظاهرًا على الكيان العضويّ للإنسان، وهو ما يظهر من واقعه أن إتلافًا للمراكز العصبية؛ يمكن أن يؤدي إلى الحاق الضرر به.

وهذه النتيجة تعني في ميدان المعرفة أن الحواس والمخيلة تقدم الموضوعات التي ستعمل عليها المعرفة العقلية. ومن المهم أن نلحظ أن هذه التبعية المشار إليها ليست ذاتية، بل هي تبعية موضوعية، ومثال ذلك أن اضطراب المراكز العصبية يؤثر مباشرة (ذاتيًّا) في المخيلة، ويجعل قيامها بنشاطها غير ممكن، وفي هذه الحالة، ونظرًا لغياب الموضوعات التي لا تقدمها المخيلة إلى العقل- فإن العقل لا يستطيع أن يعمل. وفي المقابل، فإنه ليس هناك تبعية ذاتية للعقل تجاه الجسم. نعم، إن النفس هي صورة الجسم، ولكن النفس العاقلة ترتفع فوق مستوى المادة[٢].

وبكلمات أخرى، إن الذي يُحرم حاسة في أول أمره يُحرم العلم بمدارك تلك الحاسة[*]، فالعقل لا يمكن أن يعقل بالمعقولات الخاصة عنده من دون أن يتجه إلى الصور الخيالية، ومتى تعطل فعل المخيلة بضرر، أو فعل الذاكرة بأذى؛ امتنع على الإنسان أن يعقل بالفعل ولو كان له به سابق علم[٣].

ويمضي "الأكوينيّ" في شرحه لفكرته قائلاً:

"... متى أردنا مساعدة إنسان على فهم بعض الأشياء أوردنا له الأمثلة؛ من أجل

---

(1) Aquinas, Thomas: That the soul never thinks without an image, Chapter22, in the philosophy of mind, P.173.

(٢) أ.م.بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٦٥، سبتمبر، عام ١٩٩٢م، ص ٣٧٧.

(*) سنجد ثمة تشابه بين تلك الأفكار والفكرة التي سنناقشها فيما بعد عند "وليم جيمس".

(3) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار العالم العربيّ، القاهرة، ط٢، عام ٢٠١٢م، ص ١٦٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يُكون صورًا خيالية لنفسه؛ ليستعين بها على الفهم... [١]

وما سبق يعني أنه متى حاولنا أن نتعقل شيئًا استحضرنا في عقلنا صورًا خيالية نتمثل منها ما نحاول تعقله، ومتى أردنا إنسانًا أن يتعقل شيئًا أوردنا له الأمثلة الخيالية؛ ليستعين بها على التعقل، وبهذا الالتفات إلى الصور الخيالية يدرك العقل الجزئيات أيضًا، ولكن بالتبعية وبنوع من الانعكاس على ذاته[٢].

ويقول "الأكويني":

"إذا كان على العقل أن يفهم موضوعاته المناسبة، فإنه يجب أن يتجه إلى الصور الحسية؛ من أجل أن ينظر إلى الطبائع الكلية Universal natures الموجودة في الاشياء الجزئية" [٣].

ويتضح من النص السابق أن هناك فرقًا جوهريًّا بين المعرفة الحسية والعقلية. فالأولى- لا تدرك غير الماديّ المتعين، والحسيّ العرضيّ، ولا تستطيع -مطلقًا- أن تعرف الوجود من حيث هو وجود، ولا أيّ مضمون عقليّ كان. أما الثانية- فإن محورها هو الوجود، وهي تدرك الكليّ والعام مباشرة وبذاتها ، والكليّ والعام هو وحده ممكن المعرفة على التمام [٤]

وعليه؛ فإن العقل من حيث هو عقل إنسانيّ له موضوع خاص معادل له هو ماهيته أو طبيعة الشيء المحسوس، ولابد من وجود قوة في النفس تجرد الماهية من علائقها المادية الممثلة في الصورة الخيالية الحاصلة عن الإحساس، فتجعلها معقولة بالفعل، وقوة أخرى تتعقلها. القوة الأولى- تسمى عقلا فاعلا، وتسمى الثانية- عقلا منفعلا [•] وليس العقل الإنسانيّ عقلا بالفعل كالملائكة التي تكون مفارقة بصورة كاملة للواقع الجسمانيّ، ولكن بالقوة[•*]، فلا يعقل إلا متى خرج إلى الفعل؛ إذ إن طبيعة أيّ واقع ماديّ، طبيعة الحجر أو الحصان...، لا نستطيع أن نعرفها بصورة حقيقية وكاملة إلا

---

(1) Aquinas, Thomas: OP. CIT , P 173

(2) يوسف كرم: مرجع سابق، ص ١٦٥.

(3) Aquinas, Thomas: OP. CIT, P173.

(4) أ.م بوشنسكى : مرجع سابق ، ص ٣٧٨.

(•) يستخدم الأكويني فى هذا العرض لاتجاهه مفاهيم أرسطية عكف على دراستها وتأثر بها .
لمزيد من الاطلاع أنظر :
حسن حنفى حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط أوغسطين – أنسيلم – توما الأكوينى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٧٨ م ، ص ص ٢٧١ – ٢٧٢

(•*) العقل الذى بالقوة ليس ملكة ، بل وظيفة للعقل ، فهو الذى يتقبل معقولية الأشياء عن طريق الحواس ، ثم يتصور المفهوم ، المرجع السابق ، ص٢٧٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقدر ما توجد في الأشياء الجزئية. أي أن ما يميز الأفراد في النوع هو المادة التي تقبض الصورة، وتحدها، وتشخصها [١].

ويؤكد "الأكويني" ما يأتي:

"لما كان الموضوع الحقيقيّ لعقولنا صورة لامادية، أو لما كانت طبائع الأشياء الحسية تبقى بعيدةً أو بمعزل عن الجزئيات...، فإنه لن يكون من الضروريّ؛ لكي نقوم بعملية الفهم دائمًا أن نتجه نحو الصور الحسية؛ ولهذا السبب:

أولا- الأنواع Species ممكن تخزينها Stored في العقل وتبقى فيه بطريقة معتادة عندما لا يقوم العقل بعملية الفهم فعلا. لذلك؛ ولكي نفهم بالفعل التخزين الفعليّ للأنواع ليس هذا كافيًا (أي ليس كافيًا لعملية الفهم)، بل يجب -أيضًا- أن نستخدمها بحيث تتطابق وتنسجم مع هذه الأشياء التي تكون صورًا لها، وهي بدورها طباع أو ماهيات موجودة في الجزئيات "Natures existing in particulars"[٢].

إن معنى النوع ينطبق على الطبيعة الإنسانية وفق ما لها من وجود في العقل، فالواقع أن لهذه الطبيعة الإنسانية في العقل وجودًا مجردًا عن المشخصات جميعها، ولها معنى واحد فيما يختص بكل الأفراد الموجودة خارج النفس؛ وذلك لأنها التماثل الصادق بين الناس جميعًا؛ ولأنها تؤدي إلى معرفتهم بوصفهم أناسًا، وهذه النسبة التي لها إلى الأفراد جميعهم تجعل العقل يكشف معنى النوع ويعزوها لنفسه.[٣]

ثانيًا- "لما كانت الصور الحسية -في حد ذاتها- شبيهًا بالشيء الجزئيّ؛ فإن الخيال لا يحتاج إلى شبيه آخر لما هو جزئي، كما يفعل العقل.

ثالثًا- نحن نعرف الوقائع غير الجسمانية Incorporeal realities، التي لا يكون لها صور حسية، نعرفها عن طريق تماثلها مع الأجسام المحسوسة، التي يكون لها -بالفعل- صور. كما أننا نفهم الحقيقة المجردة عن طريق النظر بعين الاعتبار إلى الأشياء التي نرى فيها الحقيقة. الإله نعرفه بوصفه علّه نُرجع إليها الكمال المطلق اللانهائيّ، وننفي عنه أيّ حدود"[٤].

ويذكرنا ما سبق، بنظرية "الحقيقة صورة" أي الحقيقة صورة طبق الأصل، وقد

---

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية... ، ص ص ١٦٦ – ١٦٧ .
- Aquinas, Thomas: that the soul never thinks … , 173 . وكذلك
(2) Ibid : PP 173,174.
(٣) حسن حنفي: مرجع سابق، ص٢٦٣.
(4) Aquinas, Thomas: OP. CIT, P 174.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبر عنها الفلاسفة المسلمون في قولهم "الحقيقة هي مطابقة ما في الأعيان لما هو في الأذهان"، وعبر عنها الفلاسفة المسيحيون -ومنهم الأكويني بالطبع- أنها هي المساواة بين العقل والأشياء بحيث يستطيع العقل أن يقرر أن ماهو موجود موجود، وأن ما ليس موجودًا ليس موجودًا. غير أن هذا التعريف للحقيقة عسير المنال؛ لأنه يفترض -مقدمًا- أن نعرف الأشياء المستقلة عن عقلنا، ثم نقارن -بعد ذلك- بين الأصل والصورة. والعسر هنا مردود إلى أنه من المحال معرفة الأشياء كما هي في ذاتها بمعزل عن تأثير العقل في حالة معرفته هذه الأشياء[١].

وأخيرًا يقول "الأكويني":

"الأكثر من ذلك أننا لا نستطيع في حالتنا الراهنة أن نعرف جواهر غير جسمانية إلا بصورة سلبية بالتماثل Analogy مع الواقع الجسمانيّ؛ لذا عندما نفهم أيّ شيء من هذه الموجودات، فعلينا بالضرورة أن نتجه إلى صور الأجسام المحسوسة على الرغم من أنها في حد ذاتها لا يكون لها مثل هذه الصورة"[٢].

وبهذا نختتم هذه الشروح والتحليلات للقديس "توما الأكويني" لنطرح سؤالنا الرئيس مرة أخرى: هل يعد التفكير تخيلا؟

طبقًا لما أودعه "الاكويني" من حجج، فالإجابة "نعم" فيما يختص بالأفراد (الموجودات الجسمانية)، و"لا" للموجودات غير الجسمانية (مثل: الملائكة)، فالنفس لا تفكر قط من دون صورة.

---

(١) مراد وهبه: ملاك الحقيقة المطلقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ١٩٩٩م، ص ٢٠١.

(2) Aquinas, Thomas: That the soul never thinks..., P 174.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعقيب على المبحث الأول:

تناولنا في هذا المبحث ثلاثة مداخل مختلفة ومتكاملة معًا. وقد قدمنا فيها مجموعة من الأطروحات الفلسفية المنظور إليها من زاوية السؤال: هل يعد التفكير تخيلا؟

واستعرضنا أفكار كل من "هوبز" و"هيوم" (الاتجاه التجريبيّ)، كما فصلنا آراء ديكارت (الاتجاه العقليّ)، وأخيرًا بيّنا حلول "الأكويني"؛ للجمع بين كلا الرأيين.

والملحوظ في هذه النماذج المختارة، أنه على الرغم من اختلافها في الدور الذي تقوم به الصور العقلية في التفكير التخيلي فإنهم قد انطلقوا من مبدأ واحد ألا وهو: أن الخيال ملكة عقلية معترف بها، وحقيقة واقعة لا يمكن إنكارها. أما إذا اتجهنا إلى الجسم فإنهم قد اتفقوا على أن الخيال بوصفه ملكة عقلية ينبغي النظر إليه في ضوء علاقته بالجسم؛ فالخيال لا تملكه إلا المخلوقات الجسمانية.

ولئن تجاوزنا الأطروحات الفلسفية وانتقلنا من جديد إلى مضمون الموضوع؛ لوجدناه كثير الأبعاد؛ وعلى قدر غير قليل من التداخل مع علوم أخرى. وفي هذا السياق نتناول عالم من علماء النفس المعرفى وفيلسوف من فلاسفة العقل .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثانى - التفكير والصور العقلية... آفاق متعددة

ظلت التأملات حول "الصور العقلية" من اختصاص الفلاسفة لزمن طويل، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر، شغلت تلك الموضوعات مناطق مشتركة يشارك فيها علماء النفس المعرفيّ، وعلماء فسيولوجيا الأعصاب، وفلاسفة العقل واللغة، وغيرهم؛ مما أدى إلى تفتح آفاق جديدة من الدراسات أثرت في العلم والفلسفة.

وفي ضوء هذا التحاور نلتقط بعض الرؤى؛ لنطرح عن طريقها تساؤلنا الرئيس: هل يعد التفكير تخيلا؟ وبالطبع، يستدعي ذلك كله وقفة؛ لكي نستبين ذلك التواصل الفكريّ.

وعلى سبيل التمهيد، نرى أنه مع ظهور مفهوم الخيال في مؤلفات علماء النفس، قد صاحب ذلك تنوع واختلاف في رؤيته وتناوله، وتراوح الأمر بين الاهتمام به مرة، وإهماله مرة أخرى. ومع ميلاد المدرسة السلوكية عام ١٩١٣م(•)، على يد مؤسسها"جون واطسون" J.Watson (١٨٧٨م- ١٩٥٨م)(**) أصبح علماء النفس في ريبة شديدة تجاه الخيال، ويقول واطسون في ذلك: "إن الصور العقلية Mental Images تقف في طريق علم النفس العلميّ Scientific psychology؛ لأننا لا يمكننا ملاحظتها ملاحظة مباشرة؛ ومن ثم لا يكون لها موضع في علم النفس السلوكيّ(١).

وبهذه النظرة الموجزة يمكننا أن نصوغ أهم أفكارهم في مبدأين أساسيين:

أولهما- عدم الثقة في التأمل الذاتيّ(*).

وثانيهما -وهو الأهم- اتباع منهج علميّ دقيق، يستند إلى الملحوظات القابلة للاختبار(**)(٢).

(•) السلوكية Behaviorism مدرسة أمريكية معاصرة في علم النفس تتخلى عن مفاهيم مثل: العقل Mind والوعي Consciousness، وتحصر كل من علم نفس الإنسان والحيوان في دراسة السلوك.

- Ledger Wood: Behaviorism, Ed in, Dictionary of philosophy, p. 35

(**) مؤسس المدرسة السلوكية الأمريكية ، صاغ برنامجا لعلم النفس مستبعداً كل إشارة إلى الوعى ، ومقتصراً على الاستجابات السلوكية Behavioural responses فحسب .

- Ibid : p . 35

(1) Bearkly B. Lud Lowp : The Philosophy of mind p. 170 .

(*) المقصود بالتأمل الذاتيّ في هذا السياق، أي استخدام منهج الاستبطان Introspection؛ من أجل أن يفحص المرء أفكاره وأحاسيسه؛ ليتعقب ما يدور فيها من ظواهر نفسية.

- زكي نجيب محمود: المنطق الوضعى الجزء الثانى ... ، ص ٣٢٥.

(**) من الملحوظ -هنا- أن الحقائق التي اعتقد "واطسون" أنها موضع للشك، وما ظنه "واطسون" حقيقيًّا هو بعينه ما رآه "ديكارت" يقيناً لا يتطرق إليه الشك، ففي حين يرى "واطسون" أن ركيزة العلم اليقينيّ هي المشاهدة الحسية، يرى "ديكارت" أن هذه المشاهدة الحسية هي أول ما يشك في يقينه، والفكر الذي سلم "ديكارت" به تسليمًا لا يعني عند "واطسون" شيئًا إلا أن يترجم إلى مجموعات سلوكية. انظر: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٢) غايتان شابيل: دمى روسية أم شبكة صيد، مقال في كتاب الدماغ والفكر ثورة علوم الاستعراف، تنسيق فرانسوا دورتييه، ترجمة محمد الدنيا، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة- دمشق، عام ٢٠٠٧م، ص٤٥،٤٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد غلقت هذه الأفكار الأبواب في وجه العقل، وقذفت به إلى أبعد ما يمكن؛ مما أدى إلى إحداث فجوة لفترة تقترب من الخمسين عامًا، إلى أن شهد علم النفس إبان النصف الأول من القرن العشرين (أي في حوالي عام ١٩٦٠م) ظهور علم نفس جديد، وهو: "علم النفس المعرفيّ" الذي وجه اهتمامه إلى الحالات العقلية، والصور العقلية، والقصدية...، أو باختصار على الحياة العقلية الداخلية كلها التي نسميها عادة "الوعي"[١].

أما ميلاد مفهوم الصور العقلية فكان على يد "فرنسيس جالتون" Francis Galton (١٨٢٢م-١٩١١م) عن طريق كتابه "بحث حول الملكات الإنسانية" " Inquiries into the human faculties"، واهتم فيه بالصور البصرية والصور السمعية خاصةً؛ وخلص في كتابه إلى أن الأفراد يمتازون بحضور الصور البصرية أكثر من غيرها من الصور العقلية الأخرى[٢].

والآن، ينبغي لنا ألا يشغلنا الاستطراد في هذا التمهيد للفكرة لدى علماء النفس؛ لنرجع إلى السؤال الذي انطلقت منه هذه الورقة البحثية: هل يعد التفكير تخيلا؟ لنعيد طرحه مرة أخرى، ولكن في هذه المرة مع عالم النفس والفيلسوف الأمريكيّ "وليم جيمس"[*]، الذي شكلت آراؤه منعطفًا آخر يستند -إلى جانب التأمل الفلسفيّ- إلى أساس علميّ. وما من شك أن معالجتنا لا تتعرض بالتفصيل له، ولكن غرضنا أن نناقش فكرته عن الصور الحسية أو العقلية والاتجاه العلمّي في هذا التفسير.

أ- "وليم جيمس"William James (١٨٤٢م-١٩١٠م)

بدأ "وليم جيمس" مؤلفه "مباديء علم النفس" بكلمات يقول فيها: "إن علم النفس هو علم الحياة العقلية..."، ويعني ذلك أنه مهتم بحياتنا العقلية، ويضيف إلى ذلك أن لها علاقة مباشرة بالعمليات التي تحدث في المخ[٣].

وإحقاقًا للحق، فقد كان لرؤى "هوبز" و"هيوم" كليهما تأثير كبير في أفكاره -ولا يزال تأثيرهما قويًا حتى يومنا هذا- واللذان وجدنا لديهما اهتمامًا بالإدراك الحسيّ، الذي

---

(١) جان فرانسوا دورتييه: إعادة اكتشاف الوعي، مقال في الدماغ والفكر ثورة علوم الاستعراف، ص٥١٠.

(٢) حسام أحمد محمد: سيكولوجية الصور العقلية ، ص١٧٢.

(*) من رواد علم النفس الحديث، ورائد الفلسفة البرجماتية، ومن أهم مؤلفاته مباديء علم النفس.

- لمزيد من الاطلاع انظر:

William S.Weedon: James, William, Dictionary of philosophy, P. 152.

(٣) أوليفر ليمان: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين آفاق جديدة للفكر، عالم المعرفة، الكويت، العدد٣٠١، مارس، عام ٢٠٠٤م، ص٢٤٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمثل شرطًا ضروريًّا للتخيل، كما سبق بيانه في المبحث الأول.

ويستمد "وليم جيمس" -مثل "هيوم"- كل مضامين العقل من الخبرة أو التجربة الحسية، غير أن مصطلحاته تختلف -بالأحرى- عن المصطلحات التي استخدمها "هيوم"، فالأفكار يصفها "هيوم" بأنها نسخ للانطباعات في التفكير، في حين يصفها "وليم جيمس" بأنها نسخ من الإحساسات(١).

ليس هذا فحسب، بل إن العلم قد ألقى أضواءً كاشفة على أفكاره؛ فنجده يستشهد -دائمًا- ببعض نتائج علماء فسيولوجيا الأعصاب، بفرض أن دراسة الملكات المعرفية الإنسانية في حاجة إلى مزيد من البرهان والدليل الملموس.

وفي ضوء ما سبق يرى "جيمس" أن:

"الإحساسات Sensations لحظة الخبرة الحسية، تقوم بتعديل الأعضاء العصبية Nervous organisms، وتظهر نسخة لهذه الإحساسات مرة أخرى في العقل، بعد أن يختفي المثير الخارجيّ Out ward stimulus. غير أنه من المستحيل أن يظهر في العقل بوصفه نسخة مالم يثار بأيّ نوع من الإحساسات الخارجية مباشرة... (٢)

ويعني ذلك أن "للإدراك الحسيّ" عند "جيمس" شروطه الفسيولوجية الضرورية في الجهاز العصبيّ أو المخ. فحين أرى أمامي شيئًا ما فإن مدركي الحسيّ عنه ناشيء من موجات ضوئية تخرج من الشيء إلى عيني، ثم إلى العصب الضوئيّ في اللحاء المخيّ، وما يحدث في المخ من تغيرات فسيولوجية تحدث في تعاقب ولها ديمومة زمنية.(٣)

وقد حرص "جيمس" في هذا النص على توضيح أن الإحساس متضمن -دومًا- في الإدراك الحسيّ. فالإحساسات تتحد مع عمليات المخ؛ لتعطينا الإدراكات الحسية؛ وعليه تكون الصور العقلية "نسخًا" من الإحساس(٤).

ويسوق "جيمس" عبارة مهمة يقول فيها:

---

(١) انظر: فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة المجلد الخامس، ص٣٣٦.

(2) James, Thomas : Imagination , Chapter 26 , Ed in , The Philosophy of mind . P183 .

(٣) محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد ... ، ص ص ٤٠-٤١.

(٤) بكري خليل: الإدراكيّ والوجوديّ في إيستمولوجيا وليم جيمس، مجلة آداب النيلين، كلية الآداب- جامعة النيلين- السودان، المجلد٢/العدد٣، يناير، عام ٢٠١٦م، ص٤٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"... الأعمى قد يحلم برؤية شيء ما Sight [•]، وقد يحلم الأصم بالأصوات لأعوام بعدما فقدا حاستي البصر أو السمع، ولكن من المستحيل أن يتخيل الشخص الذي ولد ضريرًا -قط- ما الصورة العقلية؛ إذ إن الأصول أو النسخ الأصلية Originals كلها لابد أن تعطى من الخارج، مما يعني أن الوهم Fantasy أو الخيال Imagination هي أسماء تعطى لملكة تستنسخ (تعيد إنتاج) شيئًا محسوسًا. والخيال عندما يوحد العناصر المشتقة من أصول مختلفة، لعمل أشياء كاملة جديدة يسمى خيالا منتجًا Productive imagination.[١]

وقد جاءت أفكار "جيمس" -في هذا النص- متسقة مع ما جاء به علماء فسيولوجيا الأعصاب [••] Neuro physiological من نتائج بأن إتلافًا لمركز الإبصار Vision يؤدي إلى فقد البصر. والأكثر من ذلك -طبقًا لجيمس- أنه لن تتكون صورة عقلية، ولن تكون لديه أي فكرة عما هو غير مرئيّ Unseen[٢]

ولنقف هنا قليلا عند رأي "جيمس"؛ لنتخيل شخصًا ضريرًا منذ الولادة، لم يبصر شيئًا يتسم بالحمرة طيلة حياته، وهذا لا يمنعه من تكوين مفهوم "الحمرة" واستخدامها في حياته، حرفيًا ومجازيًا وبأشكال تنم عن كثير من الذكاء والمقدرة اللغوية، كما هي حال "أبي العلاء المعريّ الذي أبدع في الوصف كما لم يبدع في الوصف شعراء مبصرون. فهل بوسعنا القول أن كلمة "أحمر" تعني للضرير ما تعنيه لنا؟ لا، فهو غير قادر على استخدامها في الظروف جميعها التي يمكننا استخدامها فيها لا ريب؛ لأن نطاق استخدامنا لهذا المفهوم أوسع وأغنى وأكثر تعقيدًا من نطاق الاستخدام المتوفر للشخص الضرير، الأمر الذي لا يستقيم مع القول بوحدة المفهوم لدى المبصر والضرير[٣].

ويضيف "جيمس" إلى شرحه للأسس الفسيولوجية للصور العقلية أن "العمليات التحتية للتخيل متناظرة مع العمليات التحتية للإدراك الحسيّ Underlying "Perception"[٤].

(•) مصطلح Sight، قد يشير إلى الإمكانية أو القدرة المختصة بالرؤية To see، وكذلك عملية أو نشاط للرؤية نفسها Seeing، ثم الموضوع المشاهد أو المرئيّ The seen أيضًا.
- شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ١٤٣.

(1) James, William: OP. CIT. P. 183 .

(••) وهى الفكرة نفسها التى أكدها توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر .
أنظر الجزء المختص بتوما الأكويني .

(•) وهى الفكرة نفسها التى أكدها توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر .
أنظر الجزء المختص بتوما الأكوينى .

(2) Bearkly B. Lud Lowp : The Philosophy of mind …, p169 .

(٣) رجا بهلول: الأخلاق بين الانفعال والإدراك ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد٢٩/١١٣ عام ٢٠١١ ميلادية ، ص١٣٧.

(4) Bearkly B, Lud Lowp: OP.CIT, P.169.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مما يعني أن مستوى الآليات الأساسية (القاعدية) التي تتضمنها عملية التخيل متماثلة مع مستوى الآليات الأساسية للإدراك الحسيّ؛ إذ يئول نسق الصور في الوضعين إلى التجارب الحسية الممكنة[١].

ويجادل "جيمس" -مثل هيوم- بأن الصور الخيالية Images أقل حيوية من الانطباعات الحسيّة Sense impressions ويؤكد وجود خبرات حسية معروفة تدعم هذه الفكرة، على سبيل المثال: إذا بكى طفل في حجرة بعيدة، فإن المرء لن يكون متأكدًا ما إذا كان مدركًا بالفعل لطفل يبكي أم أنه يتخيل ذلك. وربما يرجع ذلك إلى أن الإدراك الحسيّ يكون ضعيفًا جدًا لدرجة أنه لا يكون أكثر حيوية من الصور الخيالية السمعية [أيّ التي يتخيل أنه يسمعها][٢].

وعلى أية حال، جاءت أفكار "جيمس" متفقة مع آراء العلماء في عصره، فأيّ تفسير مقنع للحالات العقلية لا يمكن أن يقوم به "علم عقليّ نظريّ"، بل لا بد من البحث عنه في علم وظائف الأعضاء. أما الشيء المهم في مجال الإبستمولوجيا هو: "تقدم الحواس والمخيلة الموضوعات التي ستعمل عليها المعرفة العقلية، إضافة إلى ذلك، يسبق مفهوم الإدراك الحسيّ -من الناحية المنطقية- مفهوم الصور العقلية، فمن المستحيل أن تكون لدينا -قط- صورة عقلية ما لم يكن لدينا -أولاً- مفهوم للإدراك الحسيّ، في حين يكون لدينا مفهوم لإدراك حسيّ من دون أن يكون لدينا صور عقلية"[٣].

وعند "جيمس" تذوب الفوارق بين الصور التي يركبها الخيال والصور التي يركبها العقل من حيث تنظمها عمليات الفكر المترابط[٤]. فالأفكار التي أكوّنها تكوّن تمثلات دقيقة عن الإحساسات التي شعرت بها، وليس ثمة مجال لأيّ فكرة لا توجد في الإحساسات[٥].

---

(١) انظر: عاطف جودة نصر : الخيال مفهوماته ووظائفه ، ص١٦.
وكذلك: جيمس ماكللاند: نحو التقارب بين الرمزيين والوصليين، مقال من كتاب الدماغ والفكر...، ص٥٩.

(٢) انظر: −Bearkly B, Lud Lowp: OP.CIT, P.169
-وكذلك: - Armstrong, D.M.: a materialist theory of the mind … P.292.

(٣) انظر في هذا:
- أ.م بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص٣٧٧.
- Armstrong, D.M.: OP.CIT, P.302.

(٤) عاطف جودة نصر: مرجع سابق، ص١٦.

(٥) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة المجلد الخامس ، ص٣٣٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وطبقًا لآراء "جيمس" تكون الإجابة عن السؤال: هل يعد التفكير تخيلاً؟ نعم؛ إذ إن الأفكار أو الصور الخيالية والإحساسات يطابق كل منهما الآخر، طالما كان لديّ انطباعات حسية أصيلة ونسخ محاكية لذلك الأصل.

إذن فكل أفكارنا صور ترسم في مخي.

وأخيرًا، تطرح مشكلة الصور العقلية عند "وليم جيمس" مشكلتين إبستمولوجيتين رئيستين يمكن صياغتهما في التساؤلين الآتيين: أولا- هل تُعد الصور الغامضة أفكارًا مجردة؟ ثانيًا- ما الأسس العصبية للصور الخيالية؟

وعلى الرغم من الاختلاف الظاهريّ بين هاتين المشكلتين، وعلى الرغم من أنهما قد أُثيرا كل على حدة فلسفيًّا وتاريخيًّا، فإن "جيمس" يتناولهما بوصفهما مشكلتين مرتبطتين ارتباطًا وثيقًا بالسؤال عن مدى مطابقة الأفكار للصور الخيالية؟

ونتناول -أولاً- السؤال:

١ - هل الصور الغامضة أفكار مجردة؟(*)

سؤال طرحه "وليم جيمس" على نفسه محاولا الإجابة عنه، وتأسيسًا على رؤيته بأن هناك تماثلا بين التفكير (الأفكار) والصور الخيالية، ينكر إمكانية أن تكون للأفكار العامة أية مطابقة مع الصور الغامضة؛ إذ إن التفكير في موضوعات جزئية يتماثل فقط مع الصور الواضحة sharp image (١).

ويقول موضحًا فكرته:

"... العقل لا يمكن أن يُكون أيّ فكرة notion عن الكم أو الكيف quantity and quality (اللواحق المادية) من دون تكوين فكرة محددة لدرجات degrees كل منهما. وذلك معترف به فيما يختص بأيّ موضوع يمكن أن يظهر للحواس، أو بكلمات أخرى: لا يمكن أن يوجد أيّ انطباع ويكون حاضرًا أمام العقل من دون أن يكون موجودًا أو كائنًا being ومحددًا في درجاته لكل من الكم والكيف. أما التشويش أو الاضطرابconfusion المتضمن في الانطباعات -أحيانًا- ينتج -فقط- من خفوت

(*) اللفظ الأجنبيّ Abstract مشتق من الفعل اللاتينيّ abstrahere أي يستبعد draw away، فيقال عن فكرة: إنها مجردة إذا كانت بمعزل عن موضوعها. فالمثلث -مثلا- فكرة مجردة؛ لأنه معزول عن أشكال المثلثات جميعها. أما مصطلح Abstractionism فمن وضع "وليم جيمس"، ويدل على ميل إلى وصف المجردات بأنها موجودات واقعية.

- مراد وهبه: المعجم الفلسفيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ٢٠١٦م، ص ١٩٥، ٦٥٤.

(1) Bearkly B, Lud Lowp: OP. CIT, P. 169.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الانطباع faintness وعدم استقراره unsteadiness، وليس ذلك ناتجًا عن عدم قدرة العقل على استقبال أيّ انطباعات..."[١].

ومن هذا السياق يمكن القول: إن الحس يأخذ الصورة عن المادة مع اللواحق المادية (الكم والكيف...)، ويحتاج إلى وجود المادة -أيضًا- في أن تكون تلك الصورة موجودة له. وأما الخيال فإنه يبرئ الصورة المنزوعة عن المادة تبرئة أشد، وذلك بأخذها عن المادة بحيث لا يحتاج في وجودها فيه إلى وجود مادة؛ لأن المادة إن غابت أو بطلت فإن الصورة تكون ثابتة الوجود في الخيال، إلا أنها لا تكون مجردة من اللواحق المادية[•]؛ فالحس لم يجردها عن المادة تجريدًا تامًا، ولم يجردها البتة عن لواحق المادة. وأما الخيال فإنه قد جردها عن المادة تجريدًا تامًا، ولكنه لم يجردها البتة عن لواحق المادة؛ لأن الصورة في الخيال تكون وفق الصورة الحسية[٢].

فالمبدأ العام إذن أن لا أحد يستطيع أن يكون فكرة بسيطة لم يكن لديه من قبل الإحساس المناظر لها، ولا أحد يستطيع أن يكون فكرة مركبة ما لم يكن لديه من قبل انطباعات بسيطة تناظر تفصيلاتها التي تتكون منها[٣].

وقد أشار وليم جيمس إلى أن أحداً من أتباع هيوم لم يعارض نظريته سوى هكسلى Huxely (١٨٢٥م – ١٨٩٥م) ، وقد ذهب فى نقده إلى أنه من المحتمل عندما تستنسخ الانطباعات أو الصور المعقدة ، بوصفها ذكريات ، ألاتعطى كل تفاصيل الموضوعات الأصلية بدقة تامة ، ومن المؤكد أن هذه النسخ نادراً ما تفعل ذلك ، وغالباً ما تبدو ذكرياتنا مجملاً تخطيطياً Sketchesأكثر منها صوراً . وفى هذا المجمل التخطيطى للأصول تتضح الملامح البارزة المميزة ، أما الخصائص الثانوية فتبدو مبهمة أو غير متمثلة . لقد ميز هكسلى فى نقد هيوم بين الأفكار أو الصور الكلية العامة Generic Ideas وبين تلك المعينة المحددة Specific ideas[٤]

ومن هذا المنطلق يقول "جيمس":

---

(1) William James: imagination , P. 184.

(•) من حيث أشكالها وألوانها وحركاتها ، بل حتى الأصوات المفترضة المصاحبة لها . شاكر عبد الحميد : الخيال من الكهف ... ، ص ٢٨٧ .

(٢) مراد وهبه: المعجم الفلسفى، ص ص ١٩٤-١٩٥.

(٣) وليم كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ٢٠٨.

(٤) أنظر: عاطف جودة نصر : الخيال مفهوماته ووظائفه ، ص٦٠ . وكذلك James William : OP. CIT , p185

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"... عندما تسترجع نسخة reproduced من الانطباعات والأفكار المعقدة بوصفهما ذاكرة، فمن المحتمل ألا تعطي كل هذه النسخ التفاصيل الأصيلة original كلها بدقة فائقة، ومن المؤكد أنها نادرًا ما تفعل ذلك، ولا يوجد أحد يمتلك ذاكرة بهذه الجودة، وإذا لحظت موضوعًا طبيعيًّا مرة، فإنه عندما تقوم بفحصه من جديد يظهر لك شيء قد نسيته... السمات البارزة تكون -عادة- واضحة، في حين تكون الصفات التابعة أو الثانوية -عادة- غامضة... والآن، عندما يكون لدينا عدد من الانطباعات المعقدة التي تختلف -إلى حد ما- بعضها عن بعض، يمكننا أن نقول: إن من كل عشرة انطباعات للشيء الواحد ستة منهم تتشابه في كل شيء، وأربعة منهم تختلف عن البقية... الأفكار "العامة" generic التي تتكون من تجارب معقدة متشابهة ولكنها ليست متطابقة، وهي ما نطلق عليها "أفكارًا مجردة أو عامة". وقد حاول "باركلي" أن يثبت أن الأفكار العامة كلها تُعد "لا شيء" nothing(*)، ولكنها أفكار جزئية particular تلحق بمصطلح معين، وتعطي له معنى أو دلالة signification أكثر شمولا..."(١).

ويرى "جيمس" أنه إذا كانت الفكرة صورة أو نسخة، فلابد من أن تكون جزئية، كما أن ما يُسمى بـ(الأفكار المجردة) على الرغم من أنها صورة جزئية في ذاتها، فإنها قد تصبح عامة في تمثلها؛ ولذلك نجده يتفق مع باركلي(**) في القول بعدم وجود أفكار عامة مجردة(٢).

والنقطة المهمة -ونحن بصدد الحديث عن "باركلي"- أنه وضح أن في بعض الحالات قد تأتي الفكرة من دون صور خيالية images؛ وذلك لأنه ليس هناك صورة خيالية أو صورة (حسية) عقلية mental picture تتطابق correspond مع بعض الألفاظ في مفرداتنا اللغوية. ومع ذلك يمكن أن نقول: إن التخيل Imagery جزء مهم جدًا

(*) يؤكد باركلي أن الأفكار العامة هي أسماء خالصة، أي كلمة نستخدمها؛ لتدل على خصائص مشتركة لموضوعات معينة من موضوعات تجربتنا، ولا يمكن أن تكون سوى اسم، وأنها لا يمكن أن تصف أيّ حقيقة واقعية.

- انظر: عاطف جودة نصر : الخيال مفهوماته ووظائفه ، ص ٢٧٧.

(1) James, William : imagination, PP. 184,185.

(**) يتفق "هيوم" –أيضًا- مع "باركلي" في عدم وجود أفكار عامة مجردة؛ إذ إن المعطي الحسيّ إنما هو شيء جزئيّ له صفات معينة.

- لمزيد من الاطلاع انظر: محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد...، ص ٨٩.

فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس ...، ص ٣٤٧.

(2) المرجع السابق، الموضع نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في حياتنا العقلية[١].

ويُثني "وليم جيمس" على ملحوظة "باركلي" التي استبعد فيها فكرة المثلثية[*]، وهي فكرة عن شكل مشترك بين المثلثات جميعها، في حين أن المثلثات متباينة الأشكال[٢].

فنحن نستطيع -على سبيل المثال- أن نتخيل مثلثًا ومربعًا... إلخ؛ لأننا نتمكن من تكوين صورة عقلية عنه. ويمكننا أن نستمر على هذا النحو لفترة من الزمن، فنتخيل شكلا ذا أضلاع عشرة، وشكلا له أحد عشر ضلعًا، غير أننا لا نستطيع أن نستمر -عاجلا أم آجلاً- في أن نتخيل -بالمعنى نفسه- شكلا له (٠٠١,) أضلاع، أو الفرق بين شكل له (٠٠١,) أضلع وشكل له (٠٠٢,) أضلع. وبكلمات أخرى نقول: إن هناك الكثير مما يمكن أن نفكر به ونتصوره، لكننا لا نستطيع أن نتخيل معنى تكوين صور عقلية له[**] [٣].

ويؤكد "جيمس" أنه ليس بين الظواهر تماثل أو تكرار، بل هناك حدة واختلاف وليس "وحدة" أو "كليّ"، ومادامت أداتنا هي "المدركات" فلن يكون هناك غير جزئيات عديدة، ووقائع متكثرة، وروابط متباينة، وواقع خصب متغير متجدد[٤].

ولكن هل كان "جيمس" على حق؟ لا يمكن القول إن الفلاسفة كانوا على إجماع في تقييمهم له، فهناك من يرى أن الأفكار المجردة أو الكليات لا تعدو أن تكون -باستمرار- مجرد كلمات أو أسماء، خذ الأعداد مثلا. فهناك أعداد لم يعدها أحد، ومن المحتمل ألا توجد مجموعة من موضوعات موجودة في الكون تناظرها، فهل هذه الأعداد أقل واقعية بناءً على ذلك؟[٥]

كما أن الواقع لا يتألف -فقط- من أشياء عينية مجسمة، ولا من أشياء يمكن لمسها والقبض عليها باليدين. فنحن نحيا -أيضًا- في عالم من الأسرار والحقائق الحية التي لا يمكن لمسها وإن كانت -مع ذلك- بالغة الأثر. ومما لا يلمس على الإطلاق هو أكثر (الموجودات) تأثيرًا أو فاعلية[٦].

---

(1)A.R.Manser: images , P. 134.

(*) وبالمثل لا يمكننا أن نكون فكرة مجردة عن " الإنسان" عامة؛ لأن لكل إنسان لونا محددًا، وطولا محددًا.

(2) انظر: وليم كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ١٨٦.

(**) هذا القول يذكرنا بالنتيجة التي وصل إليها "ديكارت". راجع الجزء المختص بـ "ديكارت".

(3) غنار سكيربك ونلزغيلجى : تاريخ الفكر الغربى ، ص ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

(4) زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، جـ ١، مكتبة مصر، عام ١٩٨٦م، ص ٣٢.

(5) وليم كلي رايت: مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(6) شتروفه: فلسفة العلو الترانسندس، نقله إلى العربية عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٢م، ص٢٥١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونتناول -الآن- السؤال الثاني الذي طرحه "جيمس"، وهو سؤال مهم؛ إذ ينبغي لنا إيضاحه.

٢ - ما الأسس العصبية للصور الخيالية؟ أو ما العملية العصبية التي تشكل أساس التخيل؟

لقد كان لهذه الأفكار التي تدور بوصف الصور نسخًا منفصلة، وبأنه إحساس طرأ عليه الضعف- صداها وتأثيرها في الفلسفات المادية وعلم النفس، وقد أخذت تنمو بنمو المعارف التشريحية المختصة بالجهاز العصبيّ(*). وذهب أصحابها إلى أن الصور الكامنة ضرب من الرسوم المادية في الدماغ، يبعثها من كمونها مرور التيار العصبيّ بها؛ ومن ثم تتولد في العقل صورة أو نسخ للمحسوسات بعد أن يتلاشى المنبه الخارجيّ الأصلي، ولا تنشأ الصورة ما لم يكن هناك مثير منبعث من المحسوس الخارجيّ على نحو مباشر(١).

وقد عرض "وليم جيمس" آراؤه حول هذا الموضوع قائلا: "في معظم حالات الخيال يكون من الطبيعيّ أن نفترض أن العمليات التي تحدث في الخيال هي عمليات عقلية تحدث في المخ، وأن أعضاء الحواس sense organs ليس لها دور في هذه العملية. ويُرجع "جيمس" أسباب هذا الافتراض إلى: أولاً- في الخيال تكون نقطة الانطلاق عمليات تحدث في المخ، ونحن -الآن- نعرف أن هذا التيار المتدفق (العصبيّ) بالمخ يسير -غالبًا- في اتجاه واحد في الجهاز العصبيّ، وتكون الأعضاء الحسية الخارجية مستثارة في هذه الحالة؛ مما يؤدي إلى أن يتجه التدفق الموجود بالمخ اتجاهًا عكسيًّا. ثانيًا- يوجد فرق بين الموضوعات المُتخيلَة والموضوعات الملموسة felt objects، وهذا الفرق هو فرق مختص بنوع الوعي، ويمكن أن نعده مطلقًا absolute؛ إذ يمكننا أن نقارن بين قوة الصورة المتخيلة وضعف نظريتها الحسية . فالموضوع الملموس له واقع مرن plastic وملمس خارجيّ، في حين ليس للموضوع المتخيل ما سبق، والفرق بين العمليتين هو فرق في النوع وليس في الدرجة. ولئن كان الإحساس

(*) في أواخر القرن التاسع عشر توصل "بروكا" (١٨٢٤م- ١٨٨٠م) إلى نظرية الأمكنة الدماغية التي عدها الماديون انتصارًا لرؤاهم، ويدعي "بروكا" أنه نجح في تحديد مراكز النطق والكلام في الدماغ مما مهد لاكتشاف بقية مراكز مختلف الوظائف، غير أن هذا النظر قديم، وقد قال به من قبل "ابن سينا" الذي عين مراكز في تجويف الدماغ لمختلف الوظائف ذكرها في كتابه "النجاه".

- سامي السهم: الفلسفة العقلية المعتدلة عند يوسف كرم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ٢٠١٥م، ص ٢٤٧.

(1) انظر: عاطف جوده نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه ، ص ص ١٤-١٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالصوت هو تخيل قويّ، وتخيل الصوت هو إحساس ضعيف؛ فإنه يجب أن يكون هنـــاك خطٌ فاصلٌ في تلك العملية التي لا نستطيع أن نحدد ما إذا كنا نسمع صوتاً ضعيفاً أم أننـــا نتخيل صوتاً قويًّا... ومن الممكن أن نفرق بين موضوعات الخيال والموضوعات الواقعية بوصفهما ليسا مطلقين. وهنا يكون الإحساس والخيال من الصعب التفريق بينهما، ولاسيما عندما يكون الإحساس ضعيفاً. كما هو الحال عندما يبكي طفل رضيع في مكان بعيد مـــن البيت، فإننا لن نكون متأكدين إذا كنا نسمع أم نتخيل سماع صوت... وهذه الحقيقة ليـــست مختصة بحاسة السمع فقط، بل إن المريض الخائف من الجـــراح يتـــصور أنـــه يحـــس بإحساس مشرط الجراح على جلده في حين يكون (المشرط) -في الحقيقـــة- بعيـــدًا عـــن جلده(*). والإحساس البصريّ يمدنا بتجارب كثيرة تكون فيها عملياتنـــا الحـــسية مرتبطـــة بتفسير العقل للصور..."(١).

وإذا أخذنا في الاعتبار تلك الشروح لـــ"وليم جيمس"، فإننا نجد أنه من الممكن أن تتخذ العملية الحسية مكاناً آخر مختلفاً عن العملية المتخيلة، وكذلك يمكن أن تحتـــل كلتـــا العمليتين المكانة نفسها، والاختلاف بين العمليتين يكون من حيث الدرجة وفق المثيـــرات الخارجية التي تحدث من خارج المخ إلى داخله.

ومن الملحوظ أن "جيمس" يربط بين هذا الموضوع وموضوع التفكير ضمن مجال الوعي، وبمفهوم معرفيّ فالموضوع عنده يحدث ضمن ما يـــسميه بهـــامش الـــوعي (••) fringe of conscious، ويقصد به ذلك المجال من الوعي وبين بؤرة الوعي أو مركـــزه الذي يبدو واضحًا أو متميزًا ؛ إذ إن المدرك الحسيّ يتضمن الوعي المباشر للوقائع العديدة في هيئتها المحسوسة(٢).

ولا يريد "جيمس" الإشارة إلى الوعي بوصفه بيولوجيًّا أو فيزيائيًّا ماديًّا. نعـــم، إن حياتنا العقلية تتكون لديه من تيار من الوعي له حالاته التي لها علاقة مباشـــرة بعمليـــات

(*) في هذه الحالة تتساوى الظواهر الفسيولوجية والوجدانية على الرغم مما بينهما من تباين حاسم، وتغير الصورة المستعادة في هذه الحالة لا يرجع إلى تأثير التيار العصبيّ، ولكنه يعود إلى أحوال الشخص المتخيل، وإلى اهتمامه وانتباهه، وهي كلها جوانب وجدانية.
- سامي السهم:الفلسفة العقلية المعتدلة ... ، ص ٢٤٧.

(1) James, William: imagination. P. 188.

(••) لمزيد من الاطلاع عن الوعى أنظر
Dennett, C, Daneil : Consciousness Explained ; Little, Brown and Company , Boston, Torento , London , Copyright © 1991 p. 21: 41 .

(2) بكري خليل: الإدراكى والوجودى ... ، ص ص ٤٥- ٤٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المخ، إلا أن هذه الحالات لا ينبغي لنا تعريفها بعمليات المخ، و"جيمس" -هنا- أقرب كثيرًا إلى الثنائية الديكارتية[١].

وعلى هذا النحو آل مفهوم الصور إلى نشاط فسيولوجيّ، وفُسر الإحساس والتخيل تفسيرًا ماديًّا يعول على ثنائية ديكارتية (ثنائية العقل والجسم)، وارتبطت الصور بعمليات مادية تتمثل في تحول الأثر الآليّ إلى نبضة كهربية تسري في العصب السطحيّ، وفي تغير التركيب الكيميائيّ للجزيء في الخلايا العصبية، وقدرة الجهاز العصبيّ على اختزال الأحاسيس، وتحول المنبه من شكله الخارجيّ الأصليّ إلى نبضة كهربية تتدفق عن طريق التغيرات الكيميائية الحيوية في الأعصاب؛ لتتكون الصورة[٢].

وفي النهاية، استمرت محاولات الفلاسفة والعلماء؛ لتحديد مواضع الخيال في المخ. وقد كشفت الدراسات الحديثة (•) على المخ الإنسانيّ عامة عن أن الصور العقلية والخيال هي نشاطات مختصة بالنصف الكرويّ الأيمن من المخ، ولاسيما المنطقة الجانبية التي تقع خلف الفص الأماميّ الأيمن من المخ والمختصة بالإدراك الداخليّ للأماكن وتصورها والوعي بها خياليًّا، والشيء الجدير بالاهتمام أنه عكس الفكرة الشائعة حول ارتباط الخيال بالاسترخاء، فقد ثبت أن نشاط الخيال يشتمل على درجة عالية من الانتباه الداخليّ والتركيز والمقاومة للمشتتات الخارجية[٣].

وعلى الرغم مما اكتشفه علماء الأعصاب، فإننا نميل إلى الرأي بأن: محاولة اختزال الخيال -تلك العملية العقلية المعقدة- إلى نوع ما من التفسير "العلميّ" على مستوى الفسيولوجيا العصبية، هو ببساطة قصور في الفهم. نعم، للحياة العقلية عللها الفسيولوجية، لكن يظل لها خصائص تستعصي على التناول التجريبيّ، ويظل بها عنصر نفسيّ، ويداخلها -دائمًا- عناصر ذاتية وخبرات عقلية تجعل الموضوعية المطلقة أمرًا صعب المنال.

ولما كانت الأدلة العلمية غير كافية، ولا تزال بعض المصاعب قائمة؛ لذا وجب علينا الخروج من نطاق التفسير العلميّ؛ لمناقشة اقتراح –ليس بحقيقة علمية- طُرح من قِبل "جلبرت رايل".

---

(1) انظر: أوليفر ليمان: مستقبل الفلسفة فى القرن ... ، ص ٢٤٥، ٢٦٢.

(2) عاطف جودة نصر: مرجع سابق، ص ١٧.

(•) أنظر

Dennett , Daniel , C : Consciousness Explained ; Little , Brown and Company. Boston, Toronto, London, Copyright © 1991 . p. 285 : 297 .

(3) انظر: شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ٨٤، ٨٥، ٨٧.

وكذلك: سليمان عبد الواحد: قراءات فى علم النفس المعرفى ،ص ١٩٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ج- "جلبرت رايل"(*) Gilbert Ryle (١٩٠٠م-١٩٧٦م)

شنّ "جلبرت رايل" في مؤلفه "تصور العقل" "Concept of mind" عام ١٩٤٩م هجومًا على الأفكار الشائعة التي تبناها كثيرون(**) حول "التخيل" بوصفه قوة لإنتاج الصور العقلية؛ إذ يرى الكثيرون أنه متعارض مع ما نراه بالخبرة العادية(١).

ونكتفي بالإشارة إلى نقده "هيوم" في الجزء الآتي على نحو موجز؛ لنقف عن طريق هذا النقد على ما افترضه "رايل" من آراء حول الصور العقلية.

بداية، الصور الخيالية التي نجدها عند "هوبز" و"هيوم" ويهاجمها "رايل" هي موجودات عقلية تعتمد على خبرتنا السابقة عن العالم الماديّ، على الرغم من أنه قد يكون لها نسخة مطابقة موضوعية في المخ. وفي هذا تختلف عن فرض المدرسة الأبيقورية(***) Epicurean. فالفرض المطروح في قصيدة الشاعر والفيلسوف الأبيقوريّ "لوكريتوس"(****) (٩٩ق.م- ٥٥ق.م) يعد مثالا جيدًا على تعريفها بأنها "صور خيالية للأشياء". وهذه الصور يعدها "لوكريتوس" موضوعات مادية Physical objects، وإن تكن إلى حد ما أثيرية(*****) Ethereal، ووظيفتها هي توضيح الإدراك، وكذلك الصور الخيالية والأحلام. وعندما ينسب الوجود الفعليّ Actual existence إليها فإنها تشبه الصور الخيالية الحقيقية عند الفيزيائيين وهي تمثلات للموضوعات المُشكلة على شاشة أو في المكان، وتمر عن طريق العدسة أو شبكة العين عن طريق الآلية نفسها(٢).

(*) فيلسوف انجليزيّ أحد أعلام فلسفة اللغة ، وإن كانت أعماله الرئيسة تقع في ميدان العقل.
"جون ماكوري": الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد ٥٨، عام ١٩٨٢م، ص١٣٢.

(**) نقد "جلبرت رايل" سلوكية "واطسون" كما نقد "ديكارت"،بالإضافة إلى نقده لـ"هوبز" و"هيوم".
انظر في هذا: محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد...، ص ١٧٦ وما بعدها.

(1) A.R. Manser: Images…, P.134.

(***)أسسها أبيقور (٣٤١ق.م- ٢٧٠ق.م) في أثينا عام ٣٠٦ق.م.
مراد وهبة: المعجم الفلسفيّ...، ص ١٦.

(****) "لوكريتوس" فيلسوف وشاعر رومانيّ ومؤلف كتاب "في طبائع الأشياء" وهو عرض للفلسفة المادية - عند أبيقور- التي تفسر الظواهر الطبيعية بعلل طبيعية في مقابل التفسير بالخرافة.
المرجع السابق، ص ٥٤٥.

(*****)الأثير وسط افتراضيّ يملأ في الفراغ، افترضت الفيزياء الكلاسيكية وجوده، وكان افتراضه في الأصل؛ لتوفير وسط لانتشار الضوء.
رولان أومنيس: فلسفة الكوانتم فهم العلم المعاصر وتأويله، ترجمة أحمد فؤاد باشا، يمنى طريف الخولي،عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٥٠، أبريل، عام ٢٠٠٨م، ص ٣٦٤.

(2) A.R. Manser: OP.CIT, P. 134.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونحاول –الآن- تتبع نقد "رايل" آراء "هيوم"، وفي هذا الصدد، ثمة فقرة بكتاب "تصور العقل" ذات أهمية يقول "رايل" فيها:

"... اعتقد "هيوم" أن هناك انطباعات وأفكار أي إحساسات وصور خيالية، وأخذ يبحث - بلا جدوى- عن تخوم واضحة بين نوعين من الإدراك الحسيّ، واعتقد أن الأفكار أكثر خفوتًا من الانطباعات، ومن حيث تكوينها متأخرة عن الانطباعات؛ لأنها آثار Traces نسخ وإعادة إنتاج (استرجاع) للانطباعات. وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك "هيوم" أن الانطباعات يمكن أن تحمل أي درجة من عدم الوضوح على الرغم من أن كل فكرة هي عبارة عن نسخ، فإنها لا تصل إلى حد أن تكون "نسخة" أو مماثلة Likeness تمامًا أكثر من الانطباعات الأصلية..."[1].

ولسنا في حاجة إلى القول إن "هيوم" كان بالفعل على خطأ بشأن اعتقاده، أن الأفكار أكثر خفوتًا من الانطباعات؛ وعليه نواصل عرض نقد "رايل" لـ "هيوم" إذ يقول : "... وفق عرض هيوم المراقب البسيط لا يستطيع أن يقرر ما إذا كان الإدراك الحسيّ هو عبارة عن انطباع أو فكرة. الفرق الحاسم يبقى بين ما نسمعه في محادثة وما "تسمعه" في أحلامنا، بين رؤية الأفاعي في حديقة الحيوان، والأفاعي التي "يراها" الشخص المكحول (السكير) Dipsomaniac... الخطأ الذي وقع فيه "هيوم" هو افتراض أن تصور الرؤية" "Seeing" نوع خاص من الرؤية البصرية "Seeing" أو أن "الإدراك الحسيّ" هو اسم لجنس[*] Genus يندرج تحته نوعين، أي الانطباعات والأشباح[**] أو صدى للانطباعات. هذه الأشباح غير موجودة. وإذا كانت موجودة فإنها تمثل المزيد من الانطباعات Extra-impression..."[2].

---

(1)Ryle, G: "The theory of special status pictures" and "Imagination" chapter29، Ed in, The philosophy of mind, OP.CIT, P.204.

(*)هو ذلك الاسم العام الذي يندرج تحته أسماء أخري هي الأنواع.

محمد فتحي عبد الله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم للألفاظ العربية، والإنجليزية، والفرنسية، واللاتينية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، عام ٢٠٠٢م، ص ٨١.

(**) يستخدم "رايل" الفكرة نفسها؛ ليبين فشل نظرية "ديكارت" في تفسير العلاقة بين العقل والجسم، ويذهب إلى أن الظواهر العقلية يمكن تفسيرها من دون افتراض وجود "شبح". والشبح، رمز للروح التي تعمل في آلة هي الجسم الذي هو آلة عاطلة جامدة يحركها ذلك الشبح الخفيّ. وأطلق "رايل" على هذه النظرية اسم "الشبح الكامن في الآلة" Ghost in the machine.

جون ماكوري: الوجودية ، ص ١٣٣.

(2) Ryle,G: The Theory of Special.., P. 204.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا نضع أيدينا عن طريق هذا النقد على أهم عناصر الصور الحسية عند "رايل"

<<... الصور الحسية "Picture" التي أراها ليست مجرد لقطات شبحية أو وهمية Snapshots تظهر أمامي، بل على عكس ذلك، لا ينبغي أن تظهر في مكان ماديّ Physical space معين، ولكن تظهر في مكان من نوع مختلف...>>[١].

وعليه، فإن صور المخيلة عند "رايل" لها وجود مختص بها، يختلف عن وجود تلك المدركات أو الأشياء، أنها ليست أشياء استحالت إلى "صور"، بل هي صورة تبرز إلى الوجود على أنها صور وتظل كذلك. إنها ذات وجود مختص بها، وليست بحال من الأحوال نسخاً لوجود الأشياء أو المدركات مثلما زعم "هيوم".

وثمة اعتراض مهم يثيره "رايل" ويقوم بتحليله هو:

<<...يفترض -أولا- أن "الحيوية" Lively تعني أكثر حيوية "Vivid"، والشخص يمكن أن يلحظ صورة حسية حيوية Picture vividly، ولكنه لا يستطيع أن يراها كذلك. و"الفكرة" الواحدة من الممكن أن تكون أكثر حيوية More vivid من "فكرة" أخرى، ولكن الانطباعات لا يمكن وصفها بأنها أكثر حيوية على الإطلاق. كما أن دمية ما يمكن أن تكون أكثر حيوية من أخرى، ولكن الطفل الرضيع لا يمكن أن يتصف بأنه محاكٍ للحياة أو عدم الحياة Unlife like. والقول إن الاختلاف بين الأطفال الرضع والدمى هو أن الأطفال الرضع أكثر حياة من الدمى هو سخف واضح. فالممثل قد يكون أكثر إقناعًا من ممثل آخر، ولكن الشخص الذي لا يقوم بالتمثيل (المتفرج) لا هو مقنع و لا هو غير مقنع. ولا يمكن بالفعل أن يوصف الممثل على نحو فيه تبادل... [٢]

هذه الفقرة المأخوذة من "رايل" تمثل خاصة مميزة لديه، فقد استعمل التحليل اللغويّ[*] بطريقة بناءة أكثر؛ لأننا إذا بيّنّا كيف تترابط تصوراتنا بطرق مختلفة وذات معنى ؛ فسوف نرى بوضوح أكبر ما اللغة وما تكون الظواهر فعليًا[٣]. ويؤكد "رايل" أننا

---

(١) يحيى هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة...، ص ص ٢١٧-٢١٨.

(2) Ryle, G: OP.CIT, P.204.

(*) يعد "رايل" من فلاسفة التحليل الذين يعتقدون أن قضايا الفلسفة يمكن فهمها جيدًا عن طريق اللغة.

"جون سيرل": العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة وتقديم: صلاح اسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المشروع القوميّ للترجمة، العدد ١٨١٢، القاهرة، عام ٢٠١١م، ص ١٧.

(٣) غنار سكيربك و نلزغيلجي: تاريخ الفكر الغربيّ من اليونان...، ص ٩٠٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يمكننا استبدال كلمة "جسم" مثلا بكلمة "شخص" في قضية ما من دون أن يكون كلامك عديم المعنى: نقول "أنا أبغي الدفء فجلست أمام المدفأة"، ولا نقول "جسمي يبغي الدفء فجلس أمام المدفأة"[١].

وألمح "رايل" أنه من الممكن أن يحدث التباس أو تداخل Confusion بسيط عندما نحاول أن نقارن حيوية Vividness الصورة الخيالية بحيوية الانطباع الحسيّ[٢]. وأفضى به هذا القول إلى : <<... إذا استخدم "هيوم" كلمة "أكثر حيوية" على أنه لا يعني "محاكٍ للحياة" Lifelike ولكن "شديد" Intense و"حاد" Acute أو "قويّ" Strong، فإنه يكون مخطئًا في الاتجاه الآخر؛ لأنه في حين الإحساسات لا يمكن مقارنتها بإحساسات أخرى شديدة وحادة –نسبيًّا- أو قوية، فإنها في هذا لا يمكن مقارنتها بالصور الخيالية Images. عندما أتوهم Fancy[*] أنني أستمع لضوضاء شديدة أو صخب Very loud noise، فأنا أسمع في الواقع لا ضوضاء صاخبة أو خافتة، فأنا ليس لديّ احساس سمعيّ متوسط، كما أنني ليس لديّ احساس سمعيّ على الإطلاق على الرغم من أنني أتوهم أن لديّ حاسة سمعية قوية[٣]. وهذه الخبرات لا علاقة لها بالعالم الماديّ على الإطلاق. وينبغي لنا أن نضع كل هذا نصب أعيننا حين نقارن بين الإحساسات والصور الخيالية، ويواصل "رايل" حديثه قائلا: <<... الطفل الذي يتخيل دميته المصنوعة من الشمع Wax-doll تبتسم، يرى الصور الحسية للابتسامة، في حين أن الصورة الحسية للإبتسامة ليست على شفتي الدمية، بينما تظهر أمام الطفل... والطفل لا يرى بالفعل ابتسامة على شفتي الدمية، بل إنه يتوهم Fancies أنه يرى ابتسامة على شفتي الدمية، وسيكون في غاية الخوف "Frightened" إذا رأى الدمية تبتسم...>>[٤].

وفي كلام "رايل" أمور ينبغي لنا أن ننتبه إليها، أولاً- الصورة من حيث هي صورة أو شبيه للأشياء لا توجد إلا في اللحظة التي نتأمل فيها، وكلما تجدد التأمل تجددت هي أيضًا. وليست الصورة ماثلة في الذهن بما هي صور، لكن الذهن هو الذي يبعثها من

---

(١) محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد...، ص ١٧٧.

(2) Bearkly B, Ludlowp: The Philosophy of Mind..., P. 170.

(*) الإيهام أو التظاهر هنا هو نوع من النشاط العقليّ والحركيّ والانفعاليّ الذي يقوم على أساس الخيال الذي يُسقط على نحو مقصود على شيء ما. والإيهام يكون لمجرد الاستمتاع وليس بسبب الرغبة في الحصول على منفعة من ورائه.

- شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ٩٩، ١٠١.

(3) Ryle, G: "The theory of special…", P. 204.

(4) Ibid: P. 203.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كمونها ويمنحها الوجود في التصور، والسبب هو الشخص ذاته. وعلى هذا النحو يخلو التصور الخياليّ -إلى حد ما- من الإشارات أو المناسبات الحاضرة التي يمتاز بها مثول الصور في الإدراك الحسيّ[١].

الأمر الثاني- إذا تخيل طفل ابتسامة على وجه دمية، فهذا الطفل -في الواقع- لا يرى أن هذه الابتسامة زائفة، ولكن –بالأحرى- الطفل يلعب ويتصرف كما لو أن الدمى تبتسم. فهو يرى العالم والأشياء عن طريق "عين عقله"Mind's eye[*] أي عن طريق خياله[٢]. والرؤية "بعين العقل" لا تكون متضمنة لأشياء تُرى أو تُسمع. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أنها غير موجودة، حتى بالنسبة إلى القائل بها على الأقل. والأمر الثالث- الطفل في هذه الحالة يدرك أن هناك عالمين موجودين أحدهما- واقعيّ، والآخر- خياليّ أو إيهاميّ، وأن هناك -على الرغم من ذلك- صلات معينة بين هذين العالمين، أي أنه يفرق حتى داخل المستوى الخياليّ بين عالمين، عالم واقعيّ مدرك، وعالم متخيل غير مرئيّ؛ ومن ثم يكون هناك وعي بمستويات تمكن من التفريق بين ما هو إيهاميّ وما هو غير إيهاميّ، فنجد أن الطفل الذي لديه كلب حقيقيّ لا يطعمه بالطريقة نفسها التي يطعم بها الكلب المتوهم[٣]. فعقولنا تستطيع أن تخلق عالمًا "زائفًا" ليس له أساس من الواقع، وفي الوقت نفسه يعي ما هو حقيقيّ وواقعيّ، وما هو إيهاميّ[٤].

وهكذا يمكننا القول طبقًا لـ "رايل" :

<<... لا يوجد صنفان أو نوعان من القتلة Murders صنف يقتل الناس، وصنف آخر يمثل جريمة القتل على خشبة المسرح، فالنوع الأخير ليسوا بقتلة بأية حال؛ لأنهم لا يقومون بارتكاب جريمة قتل، فقط هم يتظاهرون بأنهم يقومون بارتكاب جريمة قتل. والتظاهر بارتكاب جريمة قتل لا يعني ارتكابها بالفعل، ولما كان تمثيل الجريمة ليس كالجريمة الحقيقية، بنفس المنطق فإن الصورة المتخيلة والأصوات المتخيلة ليست أصواتًا

---

(١) عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته و وظائفه، ص ص ٣٠-٣١.

(*) الرؤية بعين العقل أي التصور البصريّ (التخيل البصريّ) Visualization الداخليّ لواقعة ما، كالاستكشاف العقليّ لشكل معين أو المقارنة بين التمثيلات العقلية الداخلية التصورية وبعضها البعض.
شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ٣٠٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٦٧.
وكذلك: شاكر عبد الحميد: عصر الصورة...، ص ١٦٠.

(٣) شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ١٠٤، ١٢٨.

(٤) كريس فريث: تكوين العقل كيف يخلق المخ عالمنا الذهنيّ، ترجمة وتقديم: شوقي جلال، المركز القوميّ للترجمة، القاهرة، العدد ١٩٧٠، عام ٢٠١٢م، ص ٧٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو صورًا. وعندئذ لن تكون هناك إجابة عن السؤال الزائف أين وضعت جثة الضحية في جريمة القتل الممثلة؟ لأنه ببساطة لا يوجد ضحية Victim، وبالمثل لا توجد إجابة عن السؤال الزائف أين تكمن Reside الموضوعات التي نتوهم أننا نراها؟ لأنه لا توجد موضوعات...>>[١].

والقول بهذا لا يعني أن "رايل" أنكر أن يكون للإنسان نفس وعقل لكنه رأى أن الحديث عن عقل إنسان ماليس حديثًا عن شيء تسكن فيه حالات وعمليات غير فيزيائية كالإحساسات والخيالات والذكريات... ونحو ذلك، إنه حديث عن قدرات هذا الإنسان وميوله واستعداداته، فحياتنا النفسية والعقلية تستند إلى الشخص الفرد في الواقع التجريبيّ لا إلى النفسيّ[٢].

وفي هذا الصدد جاءت مناقشة "رايل" لفكرة الصور الحسية العقلية Mental pictures على أساس تصوريّ لا على أساس علميّ[*] Scientific؛ إذ ليس هناك ما يدعو للحديث عن مثل هذه الصور الخيالية (البصرية و السمعية و اللمسية...) عن طريق مصطلحات مستمدة من التمثّلات الفيزيقية أو الاستبطان[**] [٣]. كما أنه لا توجد هناك حياة حقيقية في الخارج، بل هي حياة أشبه بالظلال الكاذبة الشاحبة التي تقوم على المحاكاة، توجد هناك مجرد أشياء وأحداث، وأناس يشاهدون بعض هذه الأشياء والأحداث، وأناس يتوهمون أنفسهم يشاهدون Witnessing أشياء وأحداثًا هم لا يشاهدونها[٤].

---

(1) Ryle, G: The Theory of special …, P. 203.

(٢) محمود فهمي زيدان: في النفس والجسد...، ص ١٧٣، ١٧٦.

(*) العلم سلم بأن إدراكاتنا الحسية، مصدرها أشياء ذات وجود حقيقيّ وهذا الوجود خارج عقولنا ومستقل عنها، فإذا انعدمت عقولنا من الوجود أو توقفت عن العمل فإن الأشياء المادية تظل موجودة، وقادرة على إحداث إدراكات حسية في عقولنا، في حين أنه لا توجد صعوبة في فهم المكان التصوريّ أو معنى الزمان التصوريّ؛ لأنهما من مبتكراتنا الخاصة، وكل هذه المعاني موجودة في وعينا الشخصي، وتنعدم من الوجود عندما يتوقف الوعي عن العمل.

جيمس جينز: فلسفة الفيزياء، دار المعارف، القاهرة، رقم الإيداع ١٩٨١/٢٤٨٦، ص ٨٥.

(**) يهوى رايل بمطرقته على مفهوم الاستبطان ، الذى يقول أن معظم الفلاسفة وعلماء النفس يفترضونه .وفى رأيه أن هذا المفهوم يدل على نوع خاص من الإدراك بواسطته يمكن للشخص أن يلقى نظرة (غير بصرية) على ما يدور فى ذهنه .

أنظر كاثرينج. موريس : جان بول سارتر ، ترجمة أحمد على بدوى ، المركز القومى للترجمة العدد ١٦٥٨ ، عام ٢٠١١ ، ص١٢٨

(3) A.R. Manser: Images…, P. 135.

(4) Ryle, G: The theory of special…, P. 203.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى الرغم من ذلك، فإن ظاهرة "كمالو" لا تتعلق بـ"فكرة" بل بـ"صورة" حية، صورة لا يمكن أن نحيط بها على نحو كليّ، بل أن نقترب منها شيئًا فشيئًا، ونتخيلها عن طريق ذلك الوجود الحيّ الذي يحدث أمامنا على نحو واقعيّ أو متخيل، أو عن طريقهما معًا في أغلب الأحوال[١].

وبهذا القول، إذا نظرنا إلى السؤال: هل يعد التفكير تخيلا؟ تكون الإجابة بلا ريب (لا).

والحق أن هناك تشابهًا بين موقف "رايل" السابق شرحه وموقف "سارتر"[*] Sartre (١٩٠٥م-١٩٨٠م) والشبه هنا أن "سارتر" لاحظ أيضًا أن الفلاسفة السابقين عليه عندما درسوا طبيعة الخيال، التفوا إلى الصور الخيالية ولم يوجهوا عنايتهم إلى فعل الخيال ذاته، فذهبوا إلى القول بإن الصور الخيالية لشيء ما لا تختلف عن الإحساس به، فصورة المثلث او الأشجار لا تختلف عن الإحساس بها جميعًا[٢].

و"تصور رؤية" Seeing صورة خيالية بصرية Visual image أو "تصور الاستماع" إلى صورة سمعية خيالية Auditory، في اصطلاح "سارتر" هو شبه ملاحظة[**] Quasi-observation. وهو يذكرنا بـ"رايل" حين قال: "هي صرخة متخيلة ليست أكثر صخبًا Louder ولا اكثر خفوتًا من همهمة مسموعة Murmur لا تحجب ولا يُحجب عن طريقها[٣].

ومحاولة تفسير الخيال من وجهة نظر "سارتر" تتطلب فعلاً انعكاسيًا من الوعي لا يقع على الشيء الخارجيّ بقدر ما يقع على الطريقة التي يعمل بها الوعي عند التخيل[٤].

---

(١) شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ٣٨٠.

(*) يعد ما قدمه "سارتر" في نظرية الخيال أمرًا شديد الاهمية؛ وذلك لأنه يمثل بداية لعهد جديد في دراسات الخيال؛ وكذلك لكونه أول مفكر في ذلك التاريخ الطويل يخصص كتابًا كاملاً، بل كتابين -مرتبطين تمامًا في واقع الأمر- لهذا الموضوع هما: الخيال نقد سيكولوجيّ (عام ١٩٣٦م) والمخيلة: علم نفس ظاهرات الخيال (عام ١٩٤٠م).

شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ١٧٦.

(٢) عليّ محمد هادي الربيعيّ: الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح، مؤسسة دار الصادق الثقافية للطبع والنشر والتوزيع، العراق، عام ٢٠١٢م، ص ٥٦.

(**) ما يجعل الموضوع خاضعًا لحالة شبه الملاحظة المذكورة سابقًا أن الوعي يضع موضوعه على أنه غير موجود، وعلى أنه موجود ولكنه غائب، وعلى أنه موجود في مكان ما غير محدد.

شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ١٧٧.

(3) A.R. Manser: Images…، P.135.

(٤) علي محمد هادي الربيعيّ: مرجع سابق، ص ٥٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأكيد "سارتر" بأن الوعي الخياليّ يعرض الموضوع كما لو كان واقعيًّا، أي أنه لا ينتج ملاحظة إدراكية، بل ملاحظة غير واقعية، جعله يبين أن طبيعة "شبه الملاحظة" فيما يتعلق بفهمنا للصور تجعلنا نضع علامتي تنصيص حول "يرى" و"يسمع" في هذا السياق[١] .وبالفعل وضع "بوصفهما "[*] علامتي تنصيص حول الكلمات التي يتصورها الأشخاص.

كما يقارن "سارتر" بين فعل الإدراك الحسيّ وفعل التخيل، وهذه المقارنة تكشف عن مثول أشياء في العقل غير موجودة، أي عن قدرة الإنسان على تصور ماهو عدم، فالخيال يحمل إذن من جهة عامل إنكار؛ إذ هو حكم سالب بالمعنى الدقيق[٢].

وموضوع الخيال عند "سارتر" إنما يصدر عن العقل، ويمثل في العقل وحده من دون أن يكون موجودًا في الواقع على الإطلاق. وليس الخيال عنده إلا مجهود النفس؛ للتخلص من مقتضيات الوجود؛ ولإعطاء الحرية أتم معانيها[٣].

ويقدم "سارتر" في كتابه المخيلة وصفًا ظاهريًّا لوجود صور المخيلة، كما تبدو عن طريق "التجربة الحية" التي أهملتها كل النظريات السابقة. وفيه يقرر أن هذه الصور، على الرغم من أنها تظهر أمام الإنسان في باطن الوعي،[**] وعلى الرغم من أنها تظهر في نطاق الذات، فإنها تبدو في مواجهة الوعي، وهذا الأخير يلتقي بها حين يقصدها ويتجه إليها، فيجدها بكيانها المستقل أمامه[٤].

فكما يقول سارتر : " علىً أن أعرف بصفتى خادعاً ، الحقيقة المخفية عنى بصفتى مخدوعاً . فإن قصدت الكذب على نفسى ، فإن علىً أن أكون واعياً بهذا القصد، بما أن القصد شرط للوعى ، فمحاولة خداع النفس ، يستحيل أن تنجح [٥].

والوعي –لديه- يقوم بعمليات مختلفة يتناول بها الموضوعات الخارجية، فهو يدرك Perceiver ويتصور Conceiver ويتخيل Imagined، وهذه كلها طرق مختلفة يمكن للوعي أن يتناول بها شيئًا واحدًا[٦].

---

(1) A.R. Manser: OP.CIT…, P.135.

(*) لبيان ذلك قارن بين النصوص السابقة لـ "رايل".

(٢) حبيب الشاروني: فلسفة جان بول سارتر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٤٩٧/٢٨، ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٠.

(**) انظر:

Peter Caws: Sartre, Routledge & Kejan Paul, London ,Boston and Henely, 1979, pp: 34-35

(٤) يحيى هويدي، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص ٢١٨.

(٥) كاثرين ح. موريس : جان بول سارتر ، ص ١٣٨ .

(٦)عليّ محمد هادي الربيعيّ: مرجع سابق، ص ٥٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلحظ أنه على الرغم من الفروق في المصطلحات فإن هناك مقياسًا للاتفاق بين رأي "رايل" و"سارتر"[١]. فكلاهما اختزل الخيال إلى توهم أو تخيل.

أترك الآن "سارتر" ليس لأنني قد استنفدت آراءه، فهذا موضوع ما كنت لأستطيع استنفاده في هذا الجزء، بل فقط؛ لأنه لابد لي من الانتقال إلى نقد الآراء التي طرحها "رايل".

بداية، كان "رايل" على خطأ حين أكد أن الإنسان لا يصنع إلا مظاهر "الأشياء" وخيلاتها، أي اللاواقع. فالمعرفة التي تنتج هذه الأشياء اللاواقعية إنما هي ذاتها معرفة ضعيفة وعقيمة. هذا بالإضافة إلى أن معرفة من هذا القبيل لا يمكن أن تضيف شيئًا إلى عالم الوجود "الواقعيّ الفعليّ"، ولا يمكن أن تخرج أيّ عمل يقوم بذاته، بل إنها لا تصنع شيئًا سوى خداعنا، ولا تنتج إلا مظهرًا، هو عبارة عن صور لشيء وليس شيئًا مستقلا؛ إذ إنهم لا ينتجون أيّ شيء واقعيّ، بل لا يصنعون إلا صورًا عقيمة لأشياء محسوسة[٢].

وإذا صح ما قاله "رايل" فإن الخبرة المفردة، التي تبحث في عزلة بذاتها، لا تكون كافية لوضع تفريق بين الإدراك الحسيّ الحقيقيّ والهلوسة[٣].

وهناك –أيضًا- مشكلة مطروحة بمحاولة "رايل" وهو أنه لم يتمكن من شرح ما يسميه "بالتصور"[٤].

ومن اللمحات السابقة يتضح أن آراء "رايل" لا يجوز عدها إلا من قبيل إبداء الأفكار؛ وذلك لخلوها من كل سند علميّ (*)

وعلى الرغم من هذا النقد فإننا نجد أن الاستبصارات العلمية الحديثة أضافت بعدًا جديدًا إلى آراء "رايل"، ونقصد –هنا- ما يتعلق بالواقع الافتراضيّ Virtual reality

---

(1) A.R. Manser: images , P. 135.

(٢) محمود رجب: فلسفة المرآة...، ص ١٧٩.

(٣) جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع...، ص ٧٢.

(٤) تشارلز فيرست: الدماغ والفكر، ترجمة محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق،ط٢، عام ١٩٩٣م، ص٧٢.

(*) وهناك اتجاهات كثيرة كل منها مفيد فى الدراسة العلمية للتخيل وإن كانت جميعها تعتبر أن التخيل عملية عقلية وإن اختلفت هذه النظريات فى تفسيرها لهذه العملية . أنظر : سليمان عبد الواحد ، مرجع سابق ص ٢٢١، ٢٢٦ . وأيضاً

- Nolen – Hoeksema, Fredrickson : Psychology : An introduction , Cengage learning, India Education © 2003, pp. 404 : 405

- Dennett C. Daniel : Consciousness explained, …, PP. 285 : 297 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو الواقع الذي يحاكي الواقع الحقيقيّ ولكن عن طريق عمليات الكترونية رقمية[*] ترتبط بعالم الحاسوب والشاشات والأدوات التكنولوجية المتقدمة، التي بمجرد الدخول إليها (الطائرة الافتراضية مثلا) أو ارتدائها (خوذات وأزياء معينة...)، تنقل جسدنا كله ومشاعرنا إلى العالم الرقميّ، العالم الافتراضيّ، عن طريق صور وحركات وأصوات تبدو كما لو كانت هي الواقع، ولكنها ليست كذلك[١]. إنه عالم ظواهر كما لو As if "phenomena" ظواهر تبدو حقيقية وهي ليست كذلك، ظواهر موجودة، ولكن ليس بطرائق طبيعية أو عيانية ملموسة محسوسة، عالم الصور المحاكية التي تشبه الأصل ولا تشبهه، تحاكيه ولا تحاكيه، بل تتفوق عليه وتفارقه، عالم مهيمن عليه خوذات وقبضات وأزرار إلكترونية تجعل الذي يرتديها يشعر ويحس بإحساسات واقعية وهي ليست كذلك، وهكذا يعتقدون أن ما يرونه هو الواقع، في حين أن ما يرونه يكون فقط مجرد صورة للواقع، صورة افتراضية له، صورة يراد لهم أن يحلموا بها ويسعوا إلى العيش فيها، في حين أنها صورة وهمية غير حقيقة. ولا سبيل لإدراك المفارقة بين عالم الواقع وعالم الصور المتخيلة إلا بالوعي والفهم والإدراك الحقيقيّ للواقع[٢].

والفيزيائيون يتحدثون –أيضًا- عن "صور خيالية افتراضية" Virtual image و"مظهر بصريّ Visual appearance، وتلك الصور الخيالة الافتراضية لا يمكن الإمساك بها أو الكشف عنها Detected عن طريق وسائل مادية في المكان الذي يمكن أن توجد فيه (على سبيل المثال: ظهور الموضوعات خلف سطح المرآه)، هذا الاستخدام الذي يوحي أن هناك شيئًا ما غير حقيقيّ عن الصورة الخيالية، أقرب إلى الاستخدام السيكولوجيّ أو الفلسفيّ أكثر من مصطلح الصور الخيالية الواقعية. والعلاقة بين الصورة الخيالية والتخيل Imaginary يتم الحفاظ عليها في الاستخدام المألوف[٣].

وأخيرًا وليس آخرًا، عادت أفكار "رايل" إلى الحياة مرة أخرى على يد "أولزيك نايسر"، عالم النفس المعرفيّ البارز، ذلك الذي حاول أن يربط بين الإدراك والمعرفة. فوجود صورة عقلية داخل المخ يماثل عملية التخيل أو التظاهر بالرؤية. فهي عملية – لديه- أشبه بالتوقع أو الاستعداد للإدراك، وهي ليست عملية مختصة باستعادة صورة عقلية شبه واقعية أو وصف إدراكيّ مجرد، بل إنها حالة شبيهة بحالات تعليق حالة عدم

(*) نؤكد هنا أنه ليس هناك معنى لوجود صورة فريدة فيما يتعلق بالصور الرقمية.

(١) شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف...، ص ص ٢٨-٢٩.

(٢) شاكر عبد الحميد: عصر الصورة...، ص ٣٩٣، ٣٩٨.

(3) A.R. Manser: OP.CIT, P.134.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصديق التي يتحدث عنها نقاد السينما والأدب؛ إذ يجري الإرجاء والتأجيل للأحكام المنطقية الواقعية المختصة بالصدق والكذب الواقعيين والمنطقيين في مقابل حالة الاستمتاع الخيالية التي يمر بها المرء في أثناء استمتاعه بهذه الخبرات الخيالية التي يعيش فيها كما لو كان يرى ويعايش ما يدركه على نحو حقيقيّ وعلى نحو فعليّ صادق[1].

أعتقد أنه بهذه النقاط نكون قد أوجزنا التقييم الإيجابيّ لآراء "رايل" التصورية؛ لنصل إلى آخر المطاف فيما يختص بمناقشتنا للمبحث الثانى في هذه الورقة البحثية.

(١) شاكر عبد الحميد: عصر الصورة...، ص ص ١٦٠-١٦١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث- الأحلام Dreams

وجدنا من الأفضل أن ننهي هذه الورقة البحثية بجزء عن الأحلام، وليس هذا من قبيل المصادفة، لأن التفكير في الخيال على أنه طاقة إبداعية خلاقة لكل أنواع صور التفكير، لا بد أن يؤدي بنا إلى الأحلام بوصفها تنتمي إلى عالم الصورة العقلية.

ويثير البحث في الأحلام السؤال عن: ما طبيعة الأحلام؟ وهنا تواجهنا بصورة أخرى الصعوبة نفسها التي طالما دارت حولها المناقشات عن طبيعة الخيال والصور العقلية.

ونعتقد –مثل الصور العقلية- الأحلام إنما هي ظواهر خاصة "Idiosyncratic Phenomena" فأوصاف الإنسان لأحلامه ربما لا تتفق مع ما يوجد في خبرة إنسان آخر، على الرغم من أن الإنسان الآخر يدعي أن لديه أحلامًا أيضًا[١]. وعليّ أن أصدق ما يقوله الآخر حول أنه يدرك فعلا عالمًا مماثلا لعالمي؛ لأنني عمليًا لا أستطيع أن أشاطره تجربته[٢].

وبالنسبة لمعظم الناس تبدو حقيقة الحلم وجوهره هي وجود الخبرات الإدراكية الحسية. هذه الخبرات الإدراكية الحسية تتضمن الاعتقاد[٣]بأنه واقعًا عندما نعيشه، حتى أن بعضهم يتساءل متعجبًا عما إذا كانت الأحلام تضعهم في تماس وصلة مع واقع حقيقيّ آخر: واقع مقصور على ما يتصل بصميم وجودنا الباطن اتصالا حميمًا[٤].

وفي أثناء الحلم نجد أنفسنا ذوات مدركة في العالم. هذا الأعتقاد هو بصفة كلية وعي لا ذاتيّ Unself-Conscious، وهو أمر مسلم به لا يتضمن إثباتًا affirmation إننا بحق مدركين .الوعي الذاتيّ غير ممكن من الناحية النفسية في الأحلام؛ إذ أن مستوى الحياة العقلية هو من نوع بدائيّ للغاية very primitive sort[5].وعلى الرغم من أن الأحلام تمتلئ بمشاهد الحياة وأصواتها وتبدو مثل شيء ما، فإنه يختلف وعي الحلم عن الوعي في حالة اليقظة (على سبيل المثال، تفتقر الأحلام إلى الاستبطان والبصيرة)[٦].

---

(1) Armstrong, D. M.: A materialist theory of the mind, P.303

(2) بول ديفيز: العلم والبحث عن المعنى الجوهري، ترجمة أحمد رمو، مراجعة حيدر الجردي، عبد الحميد رمو، منشورات الهيئة العامة السورية، ٢٠٠٨م، ص ص ١٩٣-١٩٤.

(3) Armstrong, D. M: Op. cit, P.303

(٤) بول ديفيز: مرجع سابق، ص ١٩٣.

(5)Armstrong, D. M: Op. cit, P.303

(٦) كريستوف كوتش: البحث عن الوعي مقاربة بيولوجية عصبية، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، العدد ١٨٨٨، ٢٠١٣م، ص١٧٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد عدّ فرويد (١٨٥٦م / ١٩٣٩م) اللا وعي بمثابة "الحقيقة – النفسية الصحيحة"؛ لأن حاجاته غير خاضعة للرقابة من قِبل الاعتبارات الاجتماعية التي تتحكم بالفكر الواعي، ولا يمكن اشتقاق اللا وعي إلا عن طريق غير مباشر، عن طريق الأحلام. وكان فرويد يعد الأحلام نظرة على خطيّ اللاوعي، ووفق قوله حرفيًا: (إنها السبيل الملكي نحو اللاوعي)[١] هكذا يمكن درس اللا وعي عن طريق التأويل التفسيريّ العميق للأحلام. ومهمة التفسير هي إماطة اللثام عن المعنى الحقيقي للحلم. وهذا يقتضي التعرف إلى رموز معينة.ولا شك أن بعض تفصيلاته لا تقنعنا إقناعًا تامًا؛ إذ يبدو مثلا أن قاموس الرموز الفرويديّ ليس مقبولا كله. ولكن يحمد لفرويد أنه حاول تقديم تعليل علميّ عام للأحلام أراد فيه أن يبين أن حياتنا العقلية الواعية ليست سوى جزء صغير من حياتنا العقلية الكلية. وعملياتنا الواعية تتحدد بدقة بعوامل لا واعية[٢].

ولكن، حقيقة أن اعتقاد الوعي اللا ذاتيّ يتضمن أن الاعتقاد في حالة اليقظة غالبًا ما نقول أو نفكر (أنه كان مجرد حلم) (It was only dream)[٣]؛ أي أننا اقتنعنا في الحلم بأن كل ما يحدث لنا حقيقيّ، ولكننا فقط ندرك في لحظة الصحو أن الأمر لا يعد كونه (مجرد) حلمًا. وقوة كلمة (مجرد) هنا لا تتمثل في كلمة نأخذ بها بينما الحلم مستمر؛ بل يعني إدراك الأحداث الواقعية. والواقع هنا ليس ماهو ماديّ، بل (الواقع) مقصور على الموجود فينا نحن. وبالطبع، إذا كانت الأحلام شيئًا واقعيًا فإن الأشياء التي في الأحلام غير واقعية[٤].

وتلك النتيجة نفسها يُأكّدعليها بالنظر إلى تقارير الأطفال الصغار والأشخاص. وما نسميه بتقاريرهم عن الأحلام يُتناول بوصفه ذكريات عن الأحداث الحقيقية. يحدث ذلك من حين لآخر عندما نبدأ في الاستيقاظ[٥].

---

(1) تشارلز فيرست: الدماغ والفكر، ترجمة محمود سيد رصاص، ص ١٧٥.

(2) غنار سكيربك ونلز غيلجي: تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ص ٧٧٨، ٧٨٠. وكذلك: برتراند راسل: حكمة الغرب ... ، ص ص ٢٨١- ٢٨٢.

(3)Armstrong, D. M: Op. cit, P.303

(4) كريس فريث: تكوين العقل ...، ص ١٠٢.

وكذلك: شتروفه: فلسفة العلو الترانسندس، ص٢٤٩.

وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ص١٩٣.

Armstrong, D. M: A materialist Theory of the mind. .. P.303

(5) Ibid: PP. 303- 304.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن على الرغم من أن الأحلام تبدو مفعمة الحيوية، فإننا نتذكر منها أقل القليل. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الصور تكون في حالة تحول وتبدل وهدم وبناء و نتيجة لسرعة تبدل صور الأحلام، يصعب تذكر مجمل الحلم بعد الاستيقاظ من النوم[١].

والطريقة التي تفكر أنفسنا بها في أثناء الحلم هي أن خبرتنا (مجرد) حلم، أي إنها إدراكات متوهمة illsory لأشياء يقينية. هذه الإدراكات المتوهمة يمكن أن توضح بوصفها إدراكات مكتسبة من اعتقادات زائفة شتى لمواقفنا الحالية والعالم الخارجيّ[٢].

وهذا يجعل من الممكن قول: إن هناك أشياء أخرى –إن جاز التعبير- تظهر في الأحلام (أفكار الحلم، وانفعالات الحلم)، وغير ذلك من الحالات العقلية (ذكريات وأحاسيس ...)، وغالبًا ما تظهر صور نابضة بالحياة –على الرغم من أن الصور السمعية واللمسية وغيرها قد تحدث- فكثيرًا ما ألتقي بشخصيات الأحلام التي تؤكد لي أنها شخصيات واقعية، وأنها تشاطرني تجارب أحلامي الخاصة، ويحدث هذا على المستوى المكانيّ، وعلى المستوى الزمانيّ أيضًا، وبالطبع، هذا ممتع عقليًا بالقياس إلى الوهم illusion[٣].

والأحلام تشبه الهلاوس في كونها شكلا شديد الحيوية من الصور، لكن الأحلام تحدث في أثناء النوم[*]، بينما الهلاوس تكون في أثناء اليقظة، وتحدث الأحلام لكل الناس، أما الهلاوس فلبعضهم فقط، كما تظهر في أثناء الحلم -أيضا- الأفكار الجديدة، والذكريات المنسية، وغيرها، وذلك كله يكون مألوفًا في ضوء الحلم[٤].

ومما لا شك فيه، في أثناء النوم، العمليات العقلية تظهر بيقين، وهي تعد حالات عقلية؛ لأنها تقع في وعي شخص ما، بل لا يمكن أن توجد إلا بوجود شخص ما يعيها

---

(1) علي محمد هادي الربيعيّ: الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح، ص ص٧٧-٧٨.
وكذلك: كريس فريث: مرجع سابق، ص٩٨.

(2) Armstrong, D. M: A materialist theory …, P.304.

(3) انظر: شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضيّ، ص٤٤٦.
- بول ديفيز: العلم والبحث عن المعنى ...، ص١٣٩.
وكذلك:
Armstrong, D. M: Op. cit, P.304.

(*) لقد كان "أرسطو" مقتنعًا بأننا لا نتوقف مطلقًا عن الحلم، وأن أحلامنا في أثناء النهار يغشاها الظلام الناشئ عن صخب العالم الخارجيّ. كما يؤكد بعض علماء الأعصاب هذا بقول: إن نشاط النصف الأيسر المسيطر من الدماغ يمنعنا من أن نكون واعين لأحلامنا النهارية. تشارلز فيرست: الدماغ والفكر، ص ١٦٦.

(4) شاكر عبد الحميد: مرجع الخيال من الكهف ... ، ص ص ٤٤٦-٤٤٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويدركها. وما يعرضه العقل علينا في أثنا الحلم ليس تمثيلات للعالم الفيزيقـــيّ الحقيقـــيّ، ولكن الخبرة مفعمة بالحيوية والأحاسيس الواضحة والانفعالات القوية[١].

وعلى أية حال، نستطيع القول في ضوء العرض الذي قدمناه بإيجـــاز شـــديد إن العلماء والفلاسفة والصوفية خاض في البحث والتنقيب عن سر (الأحلام)، ولكن من دون أن يصل أحد إلى قول حاسم فيه، ولا يتسع المقام هنا إلى الخوض في إبرازهـــا ويكفينـــا بالنسبة إلى هدفنا الحاليّ أن نشير إلى:

أنه على الرغم من أن (الأحلام) تنتمي إلى عالم الصور، فإن العالم الـــذي يكـــون هناك في هذه الحالة يسمى فوضى الصور؛ إذ الغياب النسبيّ للنظـــام والتتـــابع والتنظـــيم المختص بالخيال. فلا تعرف الأحلام حدودًا؛ إذ تنزاح الحدود وتذوب بين مـــا هـــو حـــيّ وماهو غير حيّ، وبين مكونات الذاكرة بعضها مع بعض ... كما أن عدد الغرائـــب فـــي الأحلام شاهد على التنوع المفرط للإشارات المتحركة في الدماغ، الذي يسعى بعدئذ إلـــى تنظيمها في مجموع متماسك ربما كان "التنشيط، التآلف" يتوافق إذًا وجُهد يهدف إلى عملية إعادة تركيب في حكاية (منطقية) عن طريق مواد متباينة آتية من مصادر عديدة[٢].

الصورة في حالة النوم لا تنشأ بفعل إراديّ، بل تتكون بطريقة عـــضوية. وهنـــا الصور العقلية تنتج عن فعل إرادي قادر على الاحتفاظ بالصور المدركة حسيًا أو التأليف بينها، الأمر الذي يؤدي إلى ابتداع صورة جديدة ليس لها وجود حسيّ[٣].

---

(1) انظر: وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة ...، ص ١٠٨.
Armstrong, D. M: A materialist Theory … , P.304.

(2) انظر: شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف ...، ص ص٤٥١-٤٥٢.
وكذلك: جان فرانسوا دورتييه: أسرار الأحلام حسب "ج: آلان هوبسون". تنسيق: فرانسوا دورتييه، مقال من كتاب: الدماغ والفكر ثورة علوم الاستعراف، ص ٥٥٠.

(3) عليّ محمد هادي الربيعي: الخيال في الفلسفة ... ، ص ٧٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن الصورة ليست مقصودة لذاتها في الحلم، وإنما هي تركيب تخيليّ للدلالة الرمزية(*)(١).

وأخيرًا، إن حرية الحالم هذه –مع ذلك- وهمية وليست حقيقية، وتلك هي النتيجة التي ينبغي أن تُوصل إليها أية نظرية عامة عن الأحلام(٢).

(*) وهنا يجب أن نميز بين نوعين من الأحلام: أولا- الرؤية أو حلم الرؤية وهو حلم يُختبر بصورة متكررة حاملا رسائل من أرواح الأجداد أو الأسلاف أو الأقارب أو الأصدقاء أو الأولياء أو الأنبياء. ثانيًا- الحلم المألوف العادي الذي يحدث نتيجة اتصال الروح بالمجال الغيبيّ أو العالم غير المنظور، ويخضع هذا النوع من الأحلام لتأويلات مختلفة؛ اعتمادًا على معرفة المؤولين، وخبرتهم، وطهارتهم، وتدينهم. والخصائص الرمزية للأحلام تجعلها قابلة للتأويل وفق إشارات معينة. فالأحلام ذاتها إشارات عن العالم غير المرئي الذي يمكن للروح أن تنفذ وتحول أحداثًا درامية إلى رموز تؤثر فينا فكريًا ووجدانيًا. إذًا المغزى الاجتماعيّ للأحلام يتمثل في أنها تُؤول أو تفسر على أنها رسائل آتية من البشر، أحياء أو أموات، مطالبين بأشياء معينة. وفي سورة (يوسف) آيات كثيرة تتناول هذا المعنى للرؤى.
السيد الأسود: الدين والتصور الشعبيّ للكون سيناريو الظاهر والباطن في المجتمع القرويّ المصريّ، المركز القوميّ للترجمة، العدد ٢١٧٦٠، ط٢، ٢٠٠٩م، ص ١٥٢.
(1) عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه، ص١١٢.
(2) برتراند رسل: حكمة الغرب "الجزء الثاني" الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص ٢٨١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نتائج الدراسة:

لم يعد يبقى لنا في ضوء العرض السابق سوى أن نورد بعض الملاحظات الختامية حول التساؤلات التي طرحناها في المقدمة.

١- اتضح لنا أنه كلما فكرنا في إماطة اللثام عن الصور العقلية وعلاقتها بالتفكير التخيليّ بمزيد من الدقة والعمق ازداد الجدل. فالسؤال: هل يعد التفكير تخيلا؟ يتطلب وَفق ما نفهمه الإجابة بـــ (نعم/لا) قاطعة. ومن الواضح- حتى وقتنا الحاليّ أنه ليس هنـــاك إجابة حاسمة لدى الفلاسفة ولا العلماء مختلفي الاختصاص. ورؤيتـــي الخاصـــة أن السبب في هذا الأمر يكمن في أن السؤال بهذه الكيفية يقع في صميم ماهية العقل؛ ولذا وجدنا في مناقشته نفس نوع اختلاف المواقف التي نجدها في مناقشات فلسفة العقـــل كلها. فنحن نواجه بإجابات مختلفة وفي الوقت نفسه لا يبدو ممكناً التخلي عن أيّ واحد منهم.

٢- لا أرفض الإجابة التي طرحها "وليم جيمس" عن السؤال: هل الصور العقلية الغامضة أفكارًا مجردة؟ غير أنني لا أقبل أن يكون رأيًا نهائيًا، فمـــن الممكـــن التفكيـــر فـــي موضوعات لا تتماثل مع صور واضحة[١].

٣- من الخطأ القول: إن الصور العقلية تقوم على مادة أو إن هناك دلالة سببية لها؛ لأننا حينما نبحث عن علة أو سبب، نسلم بأننا نعرف ما الصورة العقلية، ونملك المنـــاهج المقبولة لاكتشاف أسبابها أو نظرية عامة تقود البحث داخلها وهذا الاقتـــراح غيـــر موجود. فالعقل بصفة عامة ليس تلك النوعية من الأشياء -إن جاز هذا التعبير- التي يمكن أن تكون موضوعًا للعلوم الفيزيائية، كما أننا إذا ســـلمنا أن الإنـــسان مـــستعد لاعتناق فكرة أن الصور العقلية لها أساس فيزيائيّ يمكن تعريفه في نطـــاق العقـــل- يصبح من المعقول حينئذ افتراض أن ذلك يحدث بطريقة مماثلة في أنسجة عـــصبية أخرى تقع خارج الجهاز العصبيّ كله، وبالمثل يمكنها أن تحدث في أعضاء أخرى[٢].

---

(1) نجد في بعض سور القرآن الكريم آيات تداعب خيالنا وأفكارنا من دون أن يكون لها موضوع مماثل في الواقع، ومنها على سبيل المثال لا الحصر في سورة الصفات قول الله تعالى: "أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾"

(2) Patrick .j .ward:A model of end-directedness, Ed in , Issues in Evolutionary Epistemology, ed.T by Kai Hahlweg and C. A. Hocker , State University of New York Press. 1989, p. 58.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- رؤيتي الخاصة للعمليات العقلية التي تكشف عن نفسها أثناء النوم(الأحلام)هى أنها نتاج شيء فوق المادة هو الروح ولا تعتبر الأحلام مجرد خيال، بل إنها تعامل باحترام، وأحياناً برهبة شديدة؛ لما تحمله من رؤى ورموز.

وهكذا فإن الموضوع أصبح أكثر تعقيدًا مما بدا؛ لذا فالدراسة هي محاولة متواضعة على طريق طويل، إنها مناقشة لمّا تكتمل.

والله ولي التوفيق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع

أولا- المراجع العربية:

١- إمام عبد الفتاح : توماس هوبز فيلسوف العقلانية، سلسلة الفكر المعاصر (٥)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م.

٢- تشارلز فيرست: الدماغ والفكر، ترجمة محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٣- جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهره، ١٩٦٨م.

٤- حبيب الشاروني: فلسفة جان بول سارتر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٨ /٤٩٧.

٥- حسن حنفي حسنين: نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط أوغسطين- أنسيلم- توما الأكوينيّ، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٦- جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعيّ، ترجمة وتقديم صلاح اسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد ١٨١، ٢٠١١م.

٧- جيمس جينز: الفيزياء والفلسفة، ترجمة جعفر رجب، دار المعارف، القاهرة، رقم الايداع ١٩٨١/٥٤٨٦م .

٨- ديف روبنسون، كريس جارات: ديكارت، ترجمة إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد ٢٥٦، ٢٠٠١م.

٩- روجيه بول دروا: فقه الفلسفة، نقله إلى العربية فاروق الحميد، دارالفرقد للطباعة والنشروالتوزيع، دمشق – سورية، ٢٠١٤م.

١٠- زكريا أبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، جزء واحد، مكتبة مصر، ١٩٦٨م.

١١- زكى نجيب محمود: المنطق الوضعيّ الجزء الثاني في فلسفةالعلوم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

١٢- سامي السهم: الفلسفة العقلية المعتدلة عند يوسف كرم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م.

١٣- سليمان عبد الواحد يوسف أبراهيم: قراءات في علم النفس المعرفيّ، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٤- شتروفه: فلسفة العلو الترانسندنس، نقله إلى العربية عبد الغفار مكاوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٥- صفاءعبد السلام جعفر،فريق عمل من أعضاء هيئة التدريس بقسم الفلسفة: قراءة للمصطلح الفلسفيّ، دار كلمة، الإسكندرية،٢٠١٢م.

١٦- عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٧- على محمد هادى الربيعيّ: الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح، مؤسسة دار الصادق الثقافية للطبع والنشر والتوزيع، العراق، ٢٠١٢م.

١٨- غنار سكيربك ونلزغيلجى: تاريخ الفكر الغربيّ من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، أبريل ٢٠١٢م.

١٩- فرانسوا دورتييه: الدماغ والفكر ثورة علوم الاستعراف، ترجمة محمد الدنيا، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م.

٢٠- فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة(من ديكارت إلى ليبنتز)، ترجمة وتعليق سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المركز القوميّ للترجمة،القاهرة، العدد ٢٠٣٢، ٢٠١٣م.

٢١- فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة المجلد الخامس، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح، المركز القوميّ للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد ٤٥٥، ٢٠٠٣م.

٢٢- كريس فريث: تكوين العقل كيف يخلق المخ عالمنا الذهني، ترجمة شوقى جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد ١٩٧٠، ٢٠١٢م.

٢٣- كريستوف كوتش: البحث عن الوعى مقاربة بيولوجية عصبية، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد ١٨٨٨، ٢٠١٣م.

٢٤- محمود رجب: فلسفة المرآة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م.

٢٥- محمود فهمى زيدان: في النفس والجسد بحث في الفلسفة المعاصرة، دار الجامعات المصرية،الإسكندرية، ١٩٧٧م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٦- مراد وهبة: ملاك الحقيقة المطلقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٩م.

٢٧- منى محمد عبد المعطي: في الفلسفة والحاسوب دراسة فلسفية في نتائج علم السيبرنطيقا، دار كلمة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٢م.

٢٨- نجيب الحصادي:تقريظ العلم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، بنغازى، ١٩٩٠م.

٢٩- وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة عادل مصطفى، مراجعة يمنى طريف الخولى، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.

٣٠- وليم كلى رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

٣١- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار العالم الغربيّ، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٢م.

٣٢- يحيى هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.

ثانيًا- دوريات عربية:

١- أ.م بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة عزت قرنى، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٦٥، سبتمبر،١٩٩٢م.

٢- أوليفرليمان: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين آفاق جديده للفكر،عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٠١، مارس، ٢٠٠٤.

٣- برتراند رسل: حكمة الغرب الجزء الثانى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٧٢، ديسمبر، ١٩٨٣م.

٤- بكرى خليل: الإدراكي والوجودي في إبستمولوجيا وليم جيمس، مجلة آداب النيلين، كلية الآداب جامعة النيلين- السودان، المجلد الثاني/ العدد٣، يناير، ٢٠١٦م.

٥- جون ماكوري: الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٥٨، ١٩٨٢م.

٦- حسام أحمد محمد: سيكولوجية الصور العقلية، مجلة التربية، قطر، المجلد٣١/ العدد ١٤٢، سبتمبر، ٢٠٠٢م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧- حسام أحمد محمد أبو يوسف: الخيال: أبعاده الأساسية ووظيفته المعرفية لدى عينات من مراحل عمرية مختلفه، مجلة دراسات نفسية، المجلد ١٦، العدد ٢، أبريل، ٢٠٠٦م.

٨- رولان أومنيس:فلسفة الكوانتم فهم العلم وتأويله، ترجمة أحمد فؤاد باشا، يمنى طريف الخولى، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٥٠، أبريل، ٢٠٠٨م.

٩- شاكر عبد الحميد: الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضيّ، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٦٠، فبراير، ٢٠٠٥م.

١٠- شاكر عبد الحميد: عصر الصورة السلبيات والإيجابيات، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣١١، يناير، ٢٠٠٥م.

١١- مراد كموش: الصورة الذهنية: قراءة إبستمولوجية، مجلة دفاتر البحوث العلمية، المركز الجامعيّ مرسلي عبد الله بتيبازه، الجزائر، العدد ٥، ديسمبر، ٢٠١٤م.

١٢- يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين الأصول- الحصاد- الأفاق المستقبلية، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٤، ديسمبر، ٢٠٠٠م.

ثالثًا- الموسوعات والمعاجم العربية:

١- ابن منظور: لسان العرب، جزء٤، دار العربية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٢- ابن منظور: لسان العرب ، جزء٦، دار العربية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٣- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثانى، H-Q، تعريب خليل أحمد خليل، اشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعه الاولى، ١٩٩٦م.

٤- عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة في العربية والإنجليزية والفرنسية...، مكتبة مدبولي، الجزء ٣، ٢٠٠٠م.

٥- محمد فتحي عبد الله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم للألفاظ العربية والإنجليزية والفرنسية واللاتينيه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

٦- محمود يعقوبي: معجم الفلسفة أهم المصطلحات وأشهر الأعلام فرنسي- إنجليزي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٧- مراد وهبة: المعجم الفلسفيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٦م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعًا- المصادر الأجنبية:

1- Aquinas, Thomas: That the soul never thinks without an image, chapter 22, Ed in the philosophy of mind, edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

2- Armstrong, D. M: A materialist Theory of the mind, RouTledge, London, and New York, 1993.

3- Descartes, Rene: From meditation V I and from objection I V and reply, Chapter 24, Ed in the philosophy of mind, Edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

4- Dennett, C, Daniel,: Consciousness explained, Little, Brown and Company, Boston, Toronto, London, Copy right c, 1991.

5- Hobbes, Thomas, C. B. Macpherson: Leviathan, Reprinted Penguin Classics, Copy right c, 1985.

6- ……., :of Imagination, Ed in the philosophy of mind, Chapter 23, Ed in the philosophy of mind, Edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

7- Hume, David: A treatise of human nature being an attempt to introduce the experimental method of reasoning into moral subjects, Cavalier classics, Republished, 2015.

8- …… , : Of the Idea of memory and imagination, Chapter 25, Ed in the philosophy of mind, Edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

9- James, William: Imagination, Chapter 26, Ed in the philosophy of mind, Edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

10- Ryle, Gilbert: “ The theory of special status pictures” and “Imagining”, Chapter 29, Ed in the philosophy of mind, Edit by Bearkly and Ludlowp, Cambridge, Massachusetts, London, England, The MIT, Press, c, 1992.

خامسًا- المراجع الأجنبية:

1- Bearkly B, Ludlowp: The philosophy of mind, The MIT Press, Massachusetts, Cambridge, London, c, 1992.

2- Elizabeth Anscombe, Peter Thomas Geach: Descartes

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

philosophical writings, Nelson's university paper backs, the Open University press, printed in Hong Kong, 1954.

3- Kai Halweg and C.A. Hooker : Issues in Evolutionary Epistemology, State University of New York , Press, 1989 .

4- Nolen-Hoeksema, Fredrickson …: Atkinson and Hilgard's Psychology: An introduction, Cengage learning, India Edition, c, 2009.

5- Peter Caws: Sartre, Routledge and Kegan Paul, London, Boston and Henley, 1979.

سادسًا- القواميس والمعاجم الأجنبية:

1- Paul Edward: The Encyclopedia of philosophy, Collier Macmillan, Publisher London, Vol. 3 and 4, Copy right c, 1967.

2- Runes, D. D: The Dictionary of philosophy, Georg Rutledge and Sons, LTD, Lon

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com